كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

ISBN: 978-9922-612-27-0

محاضرات في الكتابة العربية

تأليف
الاستاذ الدكتور علي زوين
عميد كلية الكوت الجامعة

2020

اســـــم الكتاب : محاضرات في الكتابة العربية

تأليـــــــــف : الاستاذ الدكتور علي زوين
عميد كلية الكوت الجامعة

جنـــس الكتاب : دراسات لغوية

المطبعـــــــــة : مطبعة الرفاه / بغداد

ســـنة الطبـع : ٢٠٢٠

الناشـــــــــر : مركز البحوث والدراسات والنشر
كلية الكوت الجامعة

تصميم الغلاف : رائد مهند امير

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
٢١٧٧ لسنة ٢٠٢٠

مطبعة الرفاه
07902823204

فهرس الموضوعات

-مقدمة .	3
-الكتب العربية : الموضوع والمصادر .	4
-أدب الكاتب .	6
-شرح أدب الكاتب – نصوص من الكتاب .	10
-الإقتضاب في شرح أدب الكُتّاب – نصوص من الكتاب .	12
-الألفاظ الكتابية – نصوص من الكتاب .	13
-أدب الكُتّاب – نصوص من الكتاب .	17
-كتاب الكُتّاب – نصوص من الكتاب .	20
-فقه اللغة وسر العربية – نصوص من الكتاب .	23
-صبح الأعشى في صناعة الإنشا – للقلقشندي .	28
-كلمة (كاتب) ومعانيها في العربية .	31
-الأسلوب القرآني – مقدمة في تاريخ القرآن الكريم (تدوين القرآن وجمعه – ووضع الشكل (الحركات) في القرآن – وضع الإعجام في القرآن) .	33
-مظاهر الاسلوب القرآني (أساليب السور المكية والمدنية) – دقة الاشارة – حسن الإيقاع – الانتقال – التمثيل .	39
-أثر القرآن في العربية .	47
-الرسائل النبوية .	48
-كتابه (ص) الى النجاشي الأول .	49
-كتابه (ص) الى النجاشي الثاني .	51
-كتابه (ص) الى هرقل قيصر الروم .	52
-كتابه (ص) الى المقوقس ملك القبط في مصر .	54
-كتابه (ص) الى كسرى ملك الفرس .	55

-وثيقة صلح الحديبية بين المسلمين وقريش .	57
-عبد الحميد الكاتب واسلوب التوازن : أسلوبه وخصائصه الفنية – رسالته الى الكُتّاب .	60
-عبد الله بن المقَفّع : كتبه ورسائله (كليلة ودِمْنَة – الأدب الكبير والأدب الصغير – نصوص من الأدب الكبير – نصوص من الأدب الصغير) .	64
-الجاحظ : مصادره العلمية – أشهر مؤلفاته (كتاب الحيوان – كتاب البخلاء – البيان والتبيين) منهجه في البلاغة والبيان – نصوص من كتاب البيان والتبيين- نصوص من كتاب الحيوان .	72
-الرسالة العذراء المنسوبة الى ابن المدبر .	85
-أهم المصادر والمراجع .	92

مقدمة

هذه خلاصة لمجموعة من المحاضرات ألقيت على طلبة معهد الوثائقيين في بغداد بين سنتي ١٩٨٢ – ١٩٨٣ . وهو معهد تابع للفرع الإقليمي العربي للوثائق ، ولذلك يعد معهداً على المستوى الإقليمي والدولي .

وتضمنت هذه المحاضرات التعريف بالكتابة العربية من حيث الموضوع والمصادر كأدب الكاتب لابن قتيبة الذي يعد الأساس فيما أُلف بعده في هذا الموضوع ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ، والاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب لابن السيد البطليوسي ، والألفاظ الكتابية للهمذاني ، وأدب الكُتّاب للصولي ، وكتاب الكُتّاب لابن درستويه ، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي . وتضاف الى التعريف المفصل بالمصادر المذكورة آنفاً نصوص مختارة منها شرحاً وتحليلاً .ومن جملة الموضوعات ذات الصّلة كلمة (كاتب) ومعانيها في العربية من حيث المضمون والدلالة والإصطلاح . واشتملت هذه المحاضرات أيضاً على الأساليب النثرية القرآنية مع مقدمة ميسرة في تأريخ القرآن الكريم ، وبيان أثر القرآن الكريم في تاريخ العربية ، ومن ثم تناولت مباحث من الرسائل النبوية ونصوصاً مختارة منها شرحاً وتحليلاً ، ككتب النبي (ص) الى النّجاشِيّ الأول ملك الحبشة ، والنّجاشِّي الثاني ، و هِرَقْل قيصر الروم ، والمُقُوقِس ملك القِبْط في مصر ، وكسرى ملك الفرس ، ووثيقة صلح الحُديبيّة. ومن الموضوعات المهمة التي اشتملت عليها المحاضرات أشهر الكُتّاب والمترسلين ، وبيان أساليبهم النثرية مع نصوص مختارة شرحاً وتحليلاً ، كعبد الحميد الكاتب ، وعبد الله بن المقَفّع ، والجاحظ . وتناولت بالبحث مفصلاً الرسالة الموسومة بـ (الرسالة العذراء) المنسوبة الى ابن المُدبّر .

أرجو من الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب إنه ولي التوفيق .

الكتابة العربية ، الموضوع والمصادر

إن أيسر تعريف باللغة يمكن ربطه بالنشاط الاجتماعي للمجموعات البشرية عبر مراحل تطورها الحضاري . وهو تعريف يعقد علاقة سببية بين اللغة والمجتمع ، لذلك فاللغة بهذا المعيار هي وسيلة للتفاهم يعبر بها الفرد والجماعة عن الرغبات والانفعالات والأحاسيس والأفكار والعواطف من مباهج وأفراح وأحزان وحب وشفقة وكره وبغضاء ... الخ .

ولما كانت اللغة ترتبط بحياة الانسان فهي تنمو وتتطور وتتجدد بحياة الامم والحضارات ، وقد تموت بموتها ، فالملاحظ على الكثير من اللغات القديمة أنها عبرت مراحل من تطورها ثم آلت الى الإندثار وربما كانت اللغات السومرية والأكدية والمصرية القديمة والعبرية واللاتينية خير مثال لذلك . وبقيت لغات على الرغم من قدمها تنشط وتتطور وتواكب مختلف أدوار الحضارة وتضيف ألفاظاً جديدة وأساليب مستحدثة وربما كانت اللغة العربية هي أفضل شاهد على ما نقول .

إن تجزئة علم اللغة الى قضايا وموضوعات بعضها يرتبط بالحروف (الأصوات) وبعضها الآخر يرتبط بالمفردات (الكلمات) وقسم آخر منها يرتبط بالأساليب (طرق التعبير بمختلف أنواع الجمل) ، يعطينا تحديداً واضحاً لمفهوم (الكتابة) وبخاصة (الكتابة العربية) ، فما المقصود من قولنا : الكتابة العربية ؟

إن هذه الكلمة تطلق عادة : على الأساليب النثرية في تاريخ العربية وتطورها منذ العصور الاولى للتدوين وانتهاءً بالعصور المتأخرة . ويمكن أن نضيف الى ذلك المعارف المتعلقة بالخط العربي وتطوره .

لذلك فالكتابة – بهذا المفهوم – نتلمس فيها بعدين :

الأول : المظهر ، ونقصد به شكل الكتابة ، أي الخط وتطوره وكيفية رسمه والضوابط والروابط المتعلقة به وأنواعه وأقسامه .

وتدرس ضمن هذا القسم الحروف الأبجدية العربية وترتيبها بانقسامها الى نظامين أحدهما : أبجدي أي : أ ، ب ، جـ ، د ، هـ ، و ، ز ... الخ والآخر أبتثي : أي : أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ .... الخ . واختلاف رسم هذه الحروف باختلاف الخطوط ، وبتعبير آخر كيف ترسم الياء المفردة – مثلاً – في الخط الكوفي ، ثم كيف ترسم في الخط النسخي ... وهكذا .

ونقصد بالضوابط والروابط : النقط واستخدامها ، وعلامات الاعراب من فتحة وضمة وكسرة ، وعلامات لفظ الحرف في موقعه من الكلمة من فتح أو مد بالصوت أو شدة أو سكون ونحوها : وكيف كان رسم الحروف قبل استخدام هذه الروابط ؟ وكيف وجدت الضوابط الاخرى التي لم يكتب لها التواصل بالاستمرارية ؟ وكيف عالج المتقدمون موضوع عدم الوقوع في خطأ الكتابة وبخاصة ما يتعلق بالتصحيف والتحريف أي بالأحرف المتشابهة التي لو حذفت منها نقطة – مثلاً – أو اضيفت اليها نقطة لتغير معنى الكلمة .

الثاني : الجوهر ، ونقصد به المضمون وهو أساس تعريف علم الكتابة العربية . والمضمون هو الأساليب المختلفة التي يعبر بها الكاتب عن أفكاره .

ويدرس تحت هذا الموضوع النثر العربي وتطور أساليبه في مختلف الأزمنة ابتداءً بالاسلوب القرآني والأحاديث النبوية وأساليب الكتاب في القرون الهجرية الأولى ، وانتهاءً بتطور هذه الأساليب – سلباً وايجاباً – في العصور المتأخرة .

وعلى الدارس للكتابة العربية الذي يريد التوسع في الموضوع ومعرفة أصوله أن يبدأ بالمصادر الأولى ، وهي مصادر قليلة فيما لو قورنت بمصادر علوم اللغة العربية الأخرى ويعالج معظمها ما ينبغي أن يستعمله الكاتب من ألفاظ وتراكيب للتعبير ، وما

ينبغي أن يثقف به نفسه من علوم ومعارف ، وما لا ينبغي أن يستعمله من أخطاء شائعة سواء كان في تصريف الكلمة واشتقاقها أو في معناها أو في إملائها ، وموضوعات أخرى تتعلق بالإملاء كالفرق بين الضاد والظاء ، والمقصور والممدود ، وكيفية كتابة الهمزة ونحوها . وفيما يأتي بعض هذه المصادر شارحين شرحاً موجزاً أبوابها وأقسامها ومناهجها وطرائق الاستفادة منها .

أدب الكاتب

مؤلفه ابن قتيبة الدينوري وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم المولود بالكوفة في سنة ٢١٣ هـ والمتوفى ببغداد في سنة ٢٧٦ هـ .

الكتاب من الأصول الأولى للكتابة العربية وعليه شروح لبعض العلماء . وهو من المصادر الأربعة للأدب العربي كما ذكر ابن خلدون في المقدمة قائلاً : ((.. وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه اربعة دواوين ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي ، وما سوى هذه الأربعة فتوابع لها ، وفروع عنها)). يتألف الكتاب من مقدمة وأربعة أجزاء كبيرة أطلق عليها اسم (الكتاب) . وتحت كل جزء موضوعات صغيرة أطلق عليها اسم (الباب) . الجزء الأول هو (كتاب المعرفة) وتحته موضوعات منها : باب معرفة ما يضعه الناس في غير موضعه ، وباب تأويل ما جاء مثنىً في مستعمل الكلام ، وباب ما يستعمل من الدعاء في الكلام ، و باب تأويل كلام من كلام الناس مستعمل ، باب أصول أسماء الناس وتحته الموضوعات الآتية : المُسّمون بأسماء النبات ، والطير ، والسِّباع ، والهَوامّ ، والمُسّمون بالصفات ، باب معرفة ما في السماء والنجوم والأزمان والرّياح ، وباب النبات ، وباب النخل وباب ما يعرف واحده ويشكل جمعه ، وباب ما يعرف جمعه ويشكل واحده ، وباب معرفة ما في الخيل وما يستحب من

خَلْقها ، وباب معرفة ما في خَلْق الإنسان من عيوب الخَلْق ، وأبواب الفروق ، ومن موضوعاتها : فروق في خَلْق الإنسان ، وفروق في الأسنان ، وفروق في الأفواه ، وفروق في الأطفال .

باب الأشربَة ، باب معرفة الطعام ، وباب معرفة في الوحوش ، وباب معرفة الثياب واللباس ، والأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى ... الخ .

الجزء الثاني (كتاب تقويم اليد) ومن موضوعاته : باب إقامة الهِجاء ، وألف الوصل في الأسماء ، والألف مع اللام للتعريف ، وألف الفصل ، وحذف الألف ، وهاء التأنيث ، وما يزيد في الكتاب ، وما يكتب بالياء والألف من الأفعال ، وما يكتب بالألف والياء من الاسماء ، وباب الهمز ، وباب التاريخ والعدد ، وباب التثنية ، وما يستعمل كثيراً من النّسب في الكتب واللّفظ ، وما يستعمل في الكتب والألفاظ من الحروف المقصورة ، وأسماء يتفق لفظها وتختلف معانيها ... الخ .

الجزء الثالث (كتاب تقويم اللسان) ، ومن موضوعاته : باب الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها ، وباب الأفعال ، ومن موضوعات هذا الباب : ما يكون مهموزاً بمعنىً وغير مهموز بمعنىً آخر ، والأفعال التي تهمز و العوامّ تدع همزتها ، وما يهمز من الأسماء والأفعال والعوامّ تبدل الهمزة أو تسقطها ، وما لا يهمز والعوامّ تهمزه ... الخ .

الجزء الرابع (كتاب الأبنية) ومن موضوعاته : أبنية الأفعال ، ومعاني أبنية الأفعال وأبنية الأسماء .

وفي مقدمة الكتاب التي تسمى عادة (خطبة الكتاب) ذكر ابن قتيبة الغرض من وضع الكتاب وتأليفه قائلاً : ((... فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب

ناكبين[١] ومن اسمه مُتطيّرين[٢] ، ولأهله كارهين : أما الناشيء منهم فراغب عن التعليم ، والشادي[٣] تارك الإزدياد ، والمُتأدّب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متناسٍ ..)) وقال في موضع آخر :

((فإني رأيت كثيراً من كُتّاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدّعَة [٤]، واستوطئوا موكب العجز ، وأعفّوا أنفسهم من كَدِّ النّظَر [٥] ، وقلوبهم من تعب التفكّر ، حين نالوا الدَرك [٦] بغير سبب ، وبلغوا البُغْية بغير آلة [٧] ...)) .

((فلمّا أن رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت أن يذهب رَسْمه ، ويعفو أثَره ، جعلت له حظّاً من عنايتي ، وجزءاً من تأليفي ، فعملت لمُغْفل التأديب كتباً خِفافاً في المعرفة ، وفي تقويم اللسان واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل ..)) .

ويختم ابن قتيبة مقدمة كتابه بما ينبغي للمتأدِّب والكاتب أن يلم به من علوم ومعارف غير المعارف اللغوية . ولابد له من أن يعرف علوم اللغة والنحو والصرف ويميز بين الأفعال والمصادر والحال والظرف وما أشبه ذلك من الأمور . ويستحسن له أن يدرس علوماً أخرى لإكمال معرفته وتثقيف عقله ولسانه ، فذكر من هذه المعارف :

١- (النظر في الأشكال لمساحة الأرضين) وهو علم الهندسة ، فينبغي أن يعرف المثلثات بأنواعها كالقائم الزاوية والحاد والمنفرج ، والمربعات المختلفات

---

[١] نكب عن السبيل : ابتعد عنه .
[٢] التطير عن الشيء : التشاؤم منه .
[٣] قوله (الشادي) أي الذي له حظ ونصيب من الأدب .
[٤] الدّعَة : الراحة في العيش .
[٥] الكَدّ : التعب والمشقة ، والنظر : النظر في العلم وتلقي المعارف والبحث فيها .
[٦] الدّرَك : ما يدركه المرء ، ومعنى قوله : إنهم وصلوا الى ما يبتغون من غير سبب .
[٧] البَغْية : ما يبتغيه المرء . الآلة : الوسيلة ويعني بها – هاهنا – الوسائل من علوم ومعارف تؤهل الكاتب لكي يكون مُجوّدا .

والقِسيّ (الأقواس) والمُدوّرات (الدوائر) ... الخ ويوصي ابن قتيبة الدارس لهذه الموضوعات أن يختبر معارفه على نحو عملي تطبيقي لأن المعرفة العملية في مثل هذه العلوم أفضل من المعرفة النظرية ، فيقول ((.. ويستحسن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فإن المَخْبَر ليس كالمُعَايَن)) [٨] .

٢- المعرفة بالعلوم الدينية كعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله ، لكي يكون على بيّنة من ألفاظ هذه العلوم ومصطلحاتها اذا عرضت له في الكتابة .

٣- معرفة التواريخ وأخبار الناس وحفظ نصوص الحديث المشهورة ((ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً بها إذا كتب ، ويصل بها كلامه إذا حاور)) .

٤- ومدار الأمور المذكورة العقل والقريحة لدى الدارس والكاتب ، فصاحب العقل الراجح والقريحة الجيدة والذهن الوقّاد هو الذي يلتقط المعارف ويدركها ويفهمها فهماً واضحاً جلياً .

٥- وينبغي للكاتب – كما ذكر ابن قتيبة – أن يؤدب نفسه قبل تأديب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل تهذيب ألفاظه ، ويعنَى بالخصال الكريمة ويعمل بها ، ويتجنب الرذائل في القول والفعل لأن الغاية للعالم والمتعلم تهذيب الأخلاق ، وصون اللسان من الفحش والبذاء .

٦- ويوصي ابن قتيبة الكاتب أن يتجنب في كتابته الألفاظ الغريبة والعويصة الغائبة عن ذهن المتيقظ ، والبعيدة عن فهم المتأدِّب ، لأن البلاغة ليست في استعمال مثل هذه الألفاظ والكلمات وحشرها في مواضع الكلام حشراً . وإنما البلاغة استعمال الكلام الواضح المعبِّر عن الأفكار تعبيراً دقيقاً مع مراعاة أصول النحو واللغة والمعايير العلمية الأخرى .

---

[٨] المَخْبَر : مصدر ميمي لأخبر ، وأصله الخِبْرة والعلم بالشيء . والمعنى : إن العلم بالشيء ومعرفته ليست كرؤيته .

ومما تقدم يمكن أن نفهم الحاجة الشديدة الى مثل هذا الكتاب لبيان الطرائق والأساليب التي أخذ بها الكُتّاب قديماً وهو يلقي ضوءاً واضحاً على الأساليب النثرية وتطورها وبيان الأخطاء الشائعة عند العامة وما درجت عليه ألسنتهم . والكتاب – بتعبير آخر – عبارة عن مجموعة من التوصيات والمعارف المختلفة للكُتّاب والمتأدّبين وتجد فيه قضايا لغوية كثيرة وأمثلة وشواهد لإعداد الكاتب الجيد ، لذلك نجد بعض العلماء قد تصدّر لشرحه فيما بعد ، وسنقتصر على شرحين هما من أشهر شروحه التي سلمت من الضياع .

شرح أدب الكاتب

مؤلفه : أبو منصور موهوب الجواليقي ، المولود في سنة ٤٦٥ هـ ، والمتوفى في سنة ٥٤٠ هـ ، وهو من أوائل الّذين درّسوا الأدب في المدرسة النظامية ببغداد .

والكتاب من الشروح الجيدة على أدب الكاتب لابن قتيبة ، تناول فيه المؤلف شرح المقدمة والأبواب ضمن أجزائها الأربعة الكبيرة شرحاً لغوياً وأدبياً مضيفاً في شرحه ما يتعلق بالموضوعات مما أغفله ابن قتيبة أو اختصره . وقال في مقدمة شرحه ((... وبعد فإنه سألني جماعة من أهل العلم أن أذكر لهم من شرح خطبة أدب الكاتب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري – رحمه الله – وتفسير أبياته وإيضاح مشكلاته وتبيين ما رُدّ عليه فيه ما لا تسع جهالته ، ولا تَسيم إطالته [٩] ، فأجبتهم الى ذلك وبالله أستعين فيما نحوته ، وأتوكل عليه فيما عزوته ، وأسأله التوفيق في القول والعمل ، وأعوذ به من الخَطَل والزّلَل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

[٩] لا تَسيم إطالته : أي لا تُمَلّ

نصوص من الكتاب

من مقدمة الكتاب : يذكر الجواليقي – عادة – قول ابن قتيبة بعبارات منها (قال أبو محمد) و (قوله) ثم يورد النص ، وبعد إتمامه يبدأ بالشرح :

((وقوله : ... فأبعدُ غايات كاتبنا في كتابه أن يكون حسن الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أُبيّاتاً في مدح قَيْنة أو وصف كأس)) .

قال الجواليقي في شرح العبارات السابقة : ((... والغايات : جمع غاية ، وغاية الشيء : منتهاه ، وغاية الجيش رايته ... والقويم : المستقيم .

وإنما ذكر ذلك مُنْكِراً على من اقتصر من الكُتّاب على حسن الخط دون غيره ورأى أنه قد تناهى في الكمال إذا كان حسن الخط ، ولم يقصد الى عيب حسن الخط ، فإن ذلك محمود بالجملة ، وقد جاءت في الخط والقلم آثار [١٠] كثيرة ، فمنها : ما رُوِيَ عن ابن عباس – رحمه الله – أنه قال في قوله تعالى (أو أثَارةٍ من عِلْم) قال : الخَطّ الحَسَن .وفسّر بعضهم قوله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء) : أنه الخط الحسن وروي عن النبي (ص) أنه قال : (الخط الحَسَن يزيد الحَقِّ وضوحاً) . وقيل : حسن الخط إحدى البلاغتين ورداءته إحدى الزمانتين [١١] .

وأنكَرَ أيضاً على مَنْ رضي من الأدباء على أن يقول من الشعر أبَيَّاتَاً في مَدْح قَيْنَة أو وصف كأس وقنع بهذه المنزلة وكان ذلك أفضل ما فيه . وليست هذه مرتبة العلماء . وأُبَيّات : تصغير أبيات ...

والقَيْنَة : الأمَة مُغنّية كانت أو غير مُغنيّة ... سميت قيْنَة لأنها تعمل بيدها مع غنائها ، وكل صانعٍ بيده قيّنٌ إلاّ الكاتب ، ثم سميت الأمَة وإن لم تكن صانعة : قَيْنَة ثم

---

[١٠] آثار : أخبار .
[١١] الزمانَة : المَرَض .

قيل للمُغنيّة وإن لم تكن أمَةً : قَيْنة ، وإن كان الغناء صناعة ، لأن ذلك من عمل الإماء دون الحرائر .

والوصف : النّعْتُ للشيء بحِلْيته .

والكأس : القدح فيه الخمر ، فإن لم يكن فيه خمر فهو قَدَحُ ...

الاقتضاب في شرح أدب الكتاب

مؤلفه : أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي المولود سنة ٤٤٤ هـ والمتوفى في سنة ٥٢١ هـ وهو من علماء الأندلس . والكتاب شرح جيد لأدب الكاتب لابن قتيبة استوفى جميع مقاصده ، ذكر فيه أصناف الكَتَبة وما يحتاجون اليه في صناعتهم ، وتناول فيه شرح الأبيات وبيان مقاصدها ومعانيها وإعرابها وأسماء قائليها . قال البطليوسي في مقدمة كتابه ذاكراً الغرض من تأليفه ((... غرضي في كتابي هذا تفسير خُطْبة الكتاب الموسوم بأدب الكُتّاب [١٢] ، وذكر أصناف الكَتَبة ومراتبهم وجلّ ما يحتاجون اليه في صناعتهم ، ثم الكلام بعد ذلك على نُكَت من هذا الديوان يجب التنبيه عليها والإرشاد إليها ، ثم الكلام على شكل إعراب أبياته ومعانيها وذكر ما يحضرني من أسماء قائليها)) وقسّم كتابه على ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : في شرح الخطبة وما يتعلق بها من ذكر أصناف الكُتّاب وآلاتهم .

الجزء الثاني : في التنبيه على ما غلط فيه واضع الكتاب أو الناقلون عنه ، وما منع منه وهو جائز .

الجزء الثالث : في شرح أبياته .

---

[١٢] وقعت تسمية الكُتّاب هكذا عند ابن السيد وإن كان المشهور هو (أدب الكاتب) وربما استبدل بالكاتب الكُتّاب لغرض السجع ليكون متوازناً مع كلمة الاقتضاب .

نصوص من الكتاب

وهو يبدأ بذكر قول المؤلف بالتصريح بكنيته أو بذكر عبارة (قوله) شأنه في ذلك شأن الجواليقي . ثم يشرح العبارات .

((وقوله : وأُرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحَدّ المنطق)) .

قال البطليوسي في شرح العبارات السابقة : ((يريد باللطيف – هاهنا – المتفلسف سمي لطيفاً للطف نظره وأنه يتكلم في الأمور الخفيّة التي تنبو [١٣] عنها أفهام العامة وكثير من الخاصة .

ويعني بالقضاء : الحُكْم بدلائل النجوم على ما يحدث من الأمور .

وحَدّ [١٤] المنطق : كتاب يتخذه المتفلسفون مقدمة للعلوم الفلسفية ، كما يتّخذ المتأدبون صناعة النحو مقدمة للعلوم الأدبية ، وبينه وبين علم النحو مناسبة في بعض أغراضه ومقاصده ...)) .

الألفاظ الكتابية

مؤلفه : عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني ، المتوفى في بعض الأقوال في سنة ٣٢٠ هـ . وهو كتاب صغير الحجم كثير الفائدة اختصر فيه مؤلفه أغلب ما يحتاج إليه الكاتب المبتدأ وطالب العلم في مراحله الأولى من الألفاظ والتعابير والجمل المناسبة لمعانيها . ولشدة اختصاره مع جمعه لفوائد كثيرة قال أحد اللغويين والأدباء

---

[١٣] تنبو : أي تَصد عن فهمها . ومنه قولهم : نبا السيف اذا كلَّ عن الضرب .
[١٤] حَدّ الشيء : تعريفه ، وَحّد العلوم : تعريفها اصطلاحاً .

المعروفين في القرن الرابع الهجري وهو الصاحب بن عباد : ((لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مصنف كتب الألفاظ لأمرت بقطع يده)) فسئل عن السبب فقال : ((جمع شذور العربية الجَزْلة في أوراق يسيرة ، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدبين تعب الدروس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة)) .

وللكتاب طريقة معجمية رتبت فيه الألفاظ تحت موضوعات مختلفة وكثيراً ما يذكر مع الألفاظ جملاً وأساليب للتعبير مختارة ، وتظهر أهميته من هنا ، إذ يتمكن الكاتب والدارس أن ينتقي ما يشاء من الألفاظ والتعابير والجمل في كتابته . قال الهمداني في مقدمة كتابه مشيراً الى منهجه في الكتاب ومصادره : ((... فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كُتّاب الرسائل والدواوين ، البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير [١٥] ، المحمولة على الاستعارة والتلويح على مذاهب الكُتّاب وأهل الخطابة ، دون مذاهب المُتَشَدّقين [١٦] ومن المتأدّبين والمتفاصحين [١٧] المتكلفين ... ملتقطة من كتب الرسائل وأفواه الرجال وعرصات الدواوين ومحافل الرؤساء ، ومتخيرة من بطون الدفاتر ومصنفات العلماء ...)) .

وفيما يأتي بعض أقسام الكتاب ، وقد صنف فيه الموضوعات تحت كلمة (باب): باب في اللوم ، باب العفو ، باب أسماء الثأر ، باب الحقد والضغينة ، باب في المدح ، باب في الجد والسعي ، باب النسب ، باب القرابة ، باب الفقر ، باب الشفقة ، باب القساوة ، باب في أسماء الحروب وأماكنها ، باب الفصاحة ، باب البلاغة ، باب النهار وطلوعه ، باب طلوع الشمس ، باب غروب الشمس ، باب ساعات النهار ، باب الظلمة والليل ، باب انتهاء الليل وورود الصباح ... الخ .

---

[١٥] التقعير : أن يخرج كلامه على نحو مُتكلّف ، وأن يستعمل ألفاظاً غريبة إظهاراً للبلاغة .
[١٦] المُتشدّق : الذي يُخرج الألفاظ بتكلّف ، أُخذ من الشِّدق وهو جانب الفم .
[١٧] المتفاصح : الذي يتكلف الفصاحة .

نصوص من الكتاب

باب طلوع الشمس

((يقال : طَلعت الشمسُ تطلع ، وبَزَغت تبزغُ ، وشرقت تشْرقُ ، وأشرقت تُشْرقُ إشراقاً ، وأضاءت تُضيء ، وضَاءت تَضُوء ، وذَرّ قَرْنها تذرّ ذُروراً : إذا بَدَت . والذّرور : أول طلوعها ، وقَرْن الشمسِ : أعلاها ..)) .

باب أجناس السرور

منها : السُّرور ، والحُبور ، والجَذَل ، والبَهْجة ، والبَهجَة ، والاستبشار ، والارتياح ، والاغتباط ، والثلج . ويقال سرى همّي ، وأسلى غَمّي ، وأجلى كَرْبي . وتقول سرّني ذلك ، وهذا أمر سارٌّ ، و سُرَّ فلان بما فعله ، وهو مسرور ، وأبهجني ، وأجذلني ، ورفع ناظري ، وسُررتُ به ، وجَذِلْتُ به ، وبَهِجْتُ به وابتهجتُ ، واستبشرتُ له ، وأُبشِرْتُ به ، وارتحتُ لهُ ، واغتبطتُ لهُ ، وأنا مُغتبِطٌ ، وثَلَجَ به صَدْرِي .

باب الزلازل والفِتن

((الزَّلازل ، والفِتن ، والهَرْج ، والهَزاهِز ، والهَيْج ، والدواهي . ويقال : أثار فلان نَقْع [١٨] الفتنة ، واستورى زِناد الفتنة ، واستنقع باب الفتنة ، وأحسى معالم الفتنة ، وحلَّ عِصَم الفتنة ، وراش جناح الفتنة ، وسدّد سَهْم الفتنة ، وحلّ عِقال الفتنة ، وتدرّعَ جِلْباب الفتنة ، وأصَلْتَ سيف الفتنة . ويقال : فتنة صمّاء ، وفتنة عمياء ، وفِتَنٌ كقِطَعِ الليل ، وفِتَنٌ تموج كَمَوجِ البحر ، وفِتَن كالسَّيْل بالليل ..)) .

---

[١٨] النّقْع : الغبار . آثار الفتنة : أي آثار غبارها ، وهو تعبير على سبيل المجاز ، شبّهَت إثارة الفتنة بإثارة الغبار .

ومعظم الجمل الواردة في النص السابق من باب المجاز في التعبير ، فقوله : استورى زناد الفتنة ، أي قَدَحَ بزِناد الفتنة إذ شبه إثارة الفتنة بقَدْح الزِّناد لإشعال النّار كذلك قوله : سدّد سهم الفتنة ، فالتسديد هو إصابة الهدف بالسهم ، شبه الفتنة بإصابة السهم وكأنها أُثيرت في الوقت المناسب . وقوله : حلّ عقال الفتنة ، والعِقال ما يُشَدُّ به ، شبه إثارة الفتنة بحل العقال وكأنّها شاعت وانتشرت بعد أن كانت مشدودة مربوطة ربطاً محكماً كشد العقال . وقوله : تدرّع جلباب الفتنة ، فالتدرّع : لُبْس القميص ، والجِلْباب : ما يغطّى به البدن من ثوب او غيره . شبه انسياق المرء وراء الفتنة بلُبْس جِلْبابها أي ثوبها وكأنّه التزم الفتنة كالتزامه بثوبه وقميصه .

وقوله : أصْلتَ سيفَ الفتنة ، فأَصْلَت السيف بمعنى أشهره ، ومنه قيل : سيْف مُصْلَت أي مُشْهَر منزوع من غِلافه . شبه إثارة الفتنة بإشهار السيف : وكذلك الحال في باقي الأمثلة .

فالكتاب بهذا الاعتبار من الكتب المفيدة جداً وبخاصة في تعلم الجمل المناسبة في التعبير عمّا يخطر ببال الكاتب من الأمور المهمة ، ويجد فيه كثيراً من الألفاظ ومترادفاتها ما يغنيه الرجوع الى كثير من الكتب .

وثمة أمر آخر يستفاد من هذه الكتب ، وهو أن معظمها مما ألفت للتدريس في الكُتّاب وحَلْقات الدروس للمبتدئين أو للذين بلغوا مرحلة متوسطة من التعليم ، فهي تضع للطالب أنماطاً مهيّأة من الجمل والعبارات والألفاظ ، ويمكن أن نسمي هذه الكتب بالكتب التعليمية وهو دليل على تطور وسائل التدريس المبتدئ والمتوسط في القرون المتقدمة من تاريخ الحضارة الاسلامية .

أدب الكُتّاب

مؤلفه : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى في سنة ٣٣٥ هـ أو ٣٣٦ هـ . ألّفه للكتّاب وذكر فيه ما يحتاجون اليه واعتمد على من سبقه في هذا الموضوع ، وأضاف اليه أشياء كثيرة من عنده .

قال الصولي في مقدمة كتابه : ((هذا كتاب ألّفناه فيما يحتاج اليه أعلى الكُتّاب درجة وأقلّهم فيه منزلة . وجعلته جامعاً لكل ما يحتاج الكاتب اليه حتى لا يُعوّل في جميعه الا عليه)) .

وهو كتاب مختصر ولكنه جامع ، وأسلوبه واضح ، وتبويبه جيد وفيه كثير من الأمور التي أُغفلت في الكتب المتقدمة عليه ، ولا سيما ما تعلق بالخط والكتابة وتأريخهما وتطورهما وأدواتها كالحِبْر والورق والقرطاس ، وآداب الكتابة وأنواعها وترتيبها وعرضها كالإنشاء والسطور وكيفية كتابتها معتدلة على استواء الورق والمقابلة بالكتاب ونَسْخه ... الخ . وأشار في مقدمة الكتاب الى ذلك قائلاً ((وقد سلك بعض مؤلفي هذا الكتاب طريق الصواب ، ولم يوغل فيه ، وأتى بطرف من الأخبار ولم يستقصه .

وقد اختصرت كتابي هذا جُهْدي ، غير تارك ما يحتاج إليه فيه ، ولكني أخرجت المعاني في أقواتها [١٩] من الألفاظ ، وأسقطت من أكثرها الأسانيد ، ليقرب على طالبه وينال بغير كُلْفَة ما أراد ولا تبعد أقطاره عنه ..)) .

يتألف كتاب الصولي من ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول ، ومن موضوعاته : فضل الكتابة ، وما روي في أول من كتب الكتاب العربي ، وأصل كتابه (بسم الله الرحمن الرحيم) وابتداؤه ، وكيف يفتتحون كلامهم ليبارك لهم

---

[١٩] قوله (في أقواتها من الألفاظ) أي على قدر ما تحتاج إليه من الألفاظ من غير توسع في الكلام .

ويؤجروا ، ورسوم الكُتّاب في كتابتهم (بسم الله الرحمن الرحيم) ، و (أمّا بعد) وما جاء فيها ، وتصدير الكتب وما يقع فيها ، ومقال الخط ، وما قيل في حُسْن الخط من المنظوم ، وما قيل في قُبْح الخط ، والوَصَاة بإصلاح الخط وآلته ، وما قيل في النَّقْط والشَّكْل والخط الدقيق ، والحروف التي شبهت الشعراء بها ، وما جاء في وصف القلم من الكلام المنثور ، وذكر ما قيل في القلم وبَرْيه [٢٠] .

الحزء الثاني ، وأهم موضوعاته : ما قيل في الدّواة ، والحِبْر وإشتقاقه ، والقِرْطاس وما يُكتب فيه ، وقطّ القلم ، والمِقَطّ ، والسكّين ، والإنشاء ، والسطور ، والمقابلة بالكتاب ونَسْخه ، والمَشْق في الكتاب وتتريب الكتاب وتتطيينه ، والتوقيع والإعجاز ، وطَيّ الكتاب ودَرْجه ، والخاتم وسببه وما قيل فيه ، والعنوان ، والمقادير التي يكتب فيها من القراطيس ، وتحرير الكتاب ، وما يتكاتب به الناس اليوم ، ودعاء المكاتبات وأصوله وما حُمِد منه وذُمّ ، والتأريخ وما قيل في معناه ، والديوان .

الجزء الثالث ، ومن موضوعاته : وجوه الأموال التي تُحمل الى بيت المال وأصنافها ولمن تجب أحكام الأرضين ، والقَطائع ، وجزية رؤوس أهل الذمّة ، ومبلغ ما كان يرتفع من الخَرَاج ، ومكاتبة المسلم وغيره ، والأطعمة ، ومدح الإعجاز في ابتداء المكاتبة والجواب ، ومكاتبة الأخوان ، وذكر الحِساب ، ونقصان الألف وإسقاطها ، وزيادة الألف ، والهمزة ، والهاء ، والواو ، والياء ، والمقصور والممدود ، والإدغام ، وما يقطع ويوصل .

نصوص من الكتاب

---

[٢٠] بري القلم : قَطّه .

القرطاس وما يكتب فيه

((تُسمّي العرب ما يُكتب فيه : القرطاس وجمعه قراطيس : ومُهْرَقَاً وجمعه : مَهارِق ، وصحيفة وجمعها : صحائف ، وسِفْراً والجمع أسفار . قال عز وجل (يحملُ أسفاراً) وقد نزل القرآن بجميعها الا المُهْرَق . قال الله تعالى (يجعلونه قراطيس) ، وقال تعالى (ولو أنزلنا اليك كتاباً في قرطاس) وقال تعالى (إنَّ هذا لفي الصُّحُف الأولى) والعرب تُشَبّه المنزلَ إذا خلا وَدَرَجت عليه الريح وصار أرضاً بالمُهْرق ..... فأما الكراريس فواحدها : كُرّاسة ... الخ)) .

الخَاتَـــم

((... والذي عليه الكُتّاب الحُذّاق أن الرئيس والنظير يختم رِقاعه وتوقيعاته إن شاء ، وأن مَنْ دونهم لا يختم ، وإن خَتم وهو دون الرئيس والنظير لزمه إثبات اسمه على جانب كتابه الأيسر تضاؤلاً وتواضعاً ... وأحسن ما ختم به الرؤساء كتبهم ما عليه اسم الرئيس واسم أبيه . وقال بعض الكُتّاب : الوزارة الخَتم والخاتَم ، لأن سائر الأعمال يباشرها بعض الكُفاة إلا الخَتْم فإنّه لابُدَّ أن تنتهي الكتب الى الوزير وتعرض عليه فيختمها بخاتم الملك)) .

العنـــــــوان

((يقال : عُنوان الكتاب ، وعَنْونتَه ، وهي اللغة الفصيحة .. والعنوان : العلامة ، كأنك علّمته حتى عُرِف بذكر مَنْ كتبه ومَنْ كُتِبَ إليه ...

قالوا : والأحسن في عنوان الكتاب الى الرئيس أن يُعظّم الخط ويُفخّمه إذا ذُكِرتْ كُنيته أو نسبته الى شيء . وأن تُلطّف الخط في اسمك واسم أبيك وتجمعه . وقال المحققون من الكَتَبَة : إنه في ذلك إخلال للمكتوب له ، وفي مخالفته غَضُّ منه وتطاول عليه .

وإن كانت آخر الكلمة ياءً – مثلاً – كأبي علي ، وأبي عيسى ، وأبي يحيى ، وأبي يَعْلَى فرّقت الى قُدّام ولم تَردّها الى خَلْف ...

ويعنون الى الأمير بالاسم والتأمير بغير دعاء ولا كُنية إكتفاء لجلالة التأمير ، والاسم مع التأمير أجلُّ من الكُنْية لأنه أشبه بمكاتبة الخلفاء ، لأنهم يعنونون في التصدير للإمام (لعبد الله فلان الامام أمير المؤمنين) ، ولا يأتون بكنية ، فكذلك شبّهوا هذا به فكان الاسم على التأمير أجلّ من الكنية . ثم يكتبون في التصدير للإمام (لعبد الله فلان أمير المؤمنين) ، ولولي العهد للأمير أبي فلان فلان بن فلان ، كَناه الإمام ، أو لم يَكْنه ، فرّقوا بينه وبين الإمام ...)) .

كتاب الكُتّاب

مؤلفه : عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتويه ، المولود سنة ٢٥٨ هـ والمتوفى في بغداد في سنة ٣٤٧ هـ . تتألف أكثر موضوعات الكتاب من قضايا تتعلق بالرَّسْم ، أي بالخط وآدابه ومسائله . جعله المصنف في اثني عشر باباً صغيراً اشتملت على أمور ، منها :

١- باب الهمز وطريقة رسمه .

٢- باب المَدّ وأحواله .

٣- باب القَصْر وأحواله .

٤- باب الفَصْل والوَصْل ، ويقع في أحد عشر فصلاً ، وفيه كلام على ما يوصل من الكلام بما بعده ، وما يوصل بـ (ما) وما يفصل عنها ، وما يوصل من الحرف بـ (ها) وما يفصل عنها .

٥- باب الحَذْف ، ويتألّف من عشرة فصول . ويبحث في حذف الحروف كحذف المُدْغَم .

٦- باب الزيادة ، وهو أربعة فصول تبحث في زيادة الحروف كزيادة الألف ، والهاء والواو .

٧- باب البَدَل ، ويتألف من خمسة فصول ، ويبحث في بَدَل الحروف كبدل الهاء ، والألف ، والواو ، والياء .

٨- باب النَّقْط ، وهو ستة فصول تبحث في شروط النَّقْط وأنواعه وما يُنْقط من الحروف وما لا يُنْقط .

٩- باب الشّكْل (الحركات) ويتألف من ثلاثة فصول تبحث في أنواع الشكل وصوره.

١٠- باب القوافي ، وهو خمسة فصول تبحث في القوافي وأنواعها .

١١- باب رسوم الخطوط ، ويتألف من خمسة عشر فصلاً تبحث في عدد الحروف وشَكْلها واختلافها وألفاظها ورسومها ، وفيه جدول لصور الحروف ، وشرح لهذا الجدول .

١٢- باب ما أُلحق بالهجاء وليس منه ، ويتألف من ستة وعشرين فصلاً تبحث في أنواع الكتابة وأقسامها ومراتبها وآدابها ، كالقضايا المتعلقة بافتتاح الكتب ومعنى التأريخ وكتابته ، والعدد وأقسامه ، والأيام والشهور ، وبَرْي القَلَم ، وبعض الأمور المتعلقة بالدّواة والمِداد وتتريب الكتب وتطيينها وطَيّها وتسميتها وخَتْمها .

نصوص من الكتاب

ما يفتتح به الكتب

((فمن ذلك ما يفتتح به الكتب من ذِكْر الله عز وجل ، وهو (بسم الله الرحمن الرحيم) وهي آية من القرآن أنزلها الله مبتدئاً لكلامه وفَصْلاً بين سُوره ، وأثبتها الصحابة في المُصْحَف ، ورووا عن النبي (ص) أنه عدّها آية في أم الكتاب [٢١] ... ويجب افتتاح كل قول وعمل بها اقتداءً في ذلك بالله عز وجل وبرسوله ، وقد كره أن يكتب معها شيء غيرها في سَطْرها ، أو يبتدأ بها الشعر ، أو يدغم منها صورة الباء والسين على ما يفعله بعض الكُتّاب . و كُرِه تصغير اسم الله – عز وجل – تعظيماً لاسمه وكلامه . واسْتُحِبّ تبيين هذه الآية ، وتفتيح حروفها ، وتتميم ألفاظِها وتقويم لاماتها ...

وروي عن الشّعْبي : أن العرب كانت تكتب في أوائل كتبها قبل الاسلام : (باسمك اللّهُمّ) ، وكان رسول الله (ص) يكتبها كذلك صدراً من الاسلام ، فلما نزلت عليه : (باسم الله مَجْراها) كتب في أوائل كتبه (بسم الله) ، ثم نزلت عليه (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) فكتب : (بسم الله الرحمن) ، ثم نزلت عليه (إنه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم) ، فكتبها كذلك ، واستقر الأمر على افتتاح الكُتُب بها الى اليوم .. فأما ألف (بسم الله) التي بين الباء والسين فقد أُجْمِع على حذفها من الخَطّ في المُصْحَف وغيره ، وإنما حذفت عند النحويين لأنها ألف وصل ولما ذُكِر من شأنها في باب الحذف ، وكذلك ألف (الله) الثانية ، وألف (الرحمن))) .

---

[٢١] أم الكتاب : سورة الفاتحة .

ما يُصدّر به الكتب

((فمن ذلك : (سلام عليك) و (سلام على الأمير) ، ووقوعه مُنْكَّراً في صدور الكتب ، إذ لم يتقدم له ذِكْر فيصير معرفة ؛ فاذا خُتِم به الكتابُ عُرّف فكتب بالألف واللام : (السلام عليك) و (السلام على الأمير) ، لأن ذكره قد جرى في صدر الكتاب فصار معهوداً .

ولا يقدمون (عليك) على (السلام) فيقولوا : (عليك السلام) في قول ولا في كتاب الا في مراثي الشعر وذِكْر الفراق ...

ومن هذا الفصل : (أمّا بَعْدُ) الواقعة في صدور الكتب ، ودخول الفاء في جوابها ، والاعتراض بالدعاء بينهما ، فقولهم : (أما) حرف مجازاة لا يكون جوابه الا بالفاء كقولك : أما زيد فمنطلق ...

وأما الدعاء المُعْتَرض به بين (أمّا بَعْدُ) وبين جوابها فليس من الشرط والجزاء ، ولكنه تعظيم للمخاطب كقولك : (أمّا بَعْدُ – أعزّك الله – فإني منطلق) تريد (أمّا بَعْدُ فإني منطلق) ، ولو كان هذا الدعاء جواباً (لأما) لأدخلت عليه الفاء فقيل (أمّا بَعْد فأعزّك الله) ولم يكن له جواب آخر .

فقه اللغة وسر العربية

مؤلفه : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ، المولود في سنة ٣٥٠ هـ ، والمتوفى في سنة ٤٢٩ هـ .

وهو كتاب جامع باختصار لما يحتاج اليه الكاتب من ألفاظ وتعابير وجُمَل في موضوعات مختلفة . وأشبه ما يكون بكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني ولكن على نحو أوسع ، وبتبويب أكثر انتظاماً . ولذلك يمكن أن يُعَد ضمن المعجمات الموضوعية إذ رتّبت

الألفاظ تحت تقسيمات موضوعية كما سنلاحظ في مفردات الكتاب . ويشتمل الكتاب على ثلاثين باباً ، تحت كل باب مجموعة من الفصول :

الباب الأول : في الكليات ، وهي ما أطلق أئمةُ اللغة في تفسيره لفظة " كُلّ " ويتألف من أربعة عشر فصلاً ، منها الكليات التي وردت في القرآن ، وما يتعلق من ذلك بالحيوان والنبات والشجر والأمكنة والثياب والطعام والعطور ... الخ .

الباب الثاني : في التنزيل والتمثيل ، وهو خمسة فصول ، الأول منها : في طبقات الناس وذكر وسائل الحيوانات وأحوالها وما يتصل بها ، والثاني : في الإبل ، والثالث : في الأمكنة ، والرابع : في أنواع من الآلات ،والخامس : في ضروب مختلفة الترتيب .

الباب الثالث : في أشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها ، ويقع في ثلاثة فصول تشتمل على ألفاظ لها معنىً في حال ، ولها معنىً أخر إذ اختلف الحال مثال : الكأس ، فلا يقال كأس الا اذا كانت فارغة وقيل لها زُجَاجة . كذلك الكوز يطلق على ما له عُرْوة والا فهو كُوب ... الخ .

الباب الرابع : في أوائل الأشياء وأواخرها ، ويقع في ثلاثة فصول .

الباب الخامس : في صغار الأشياء وكبارها وعظامها وضخامها ، يشتمل على عشرة فصول .

الباب السادس : في الطول والقِصَر ، ويقع في أربعة فصول .

الباب السابع : في اليُبْس واللّين ، ويقع في أربعة فصول .

الباب الثامن : في الشدّة والشديد من الأشياء ، ويقع في أربعة فصول .

الباب التاسع : في القِلّة والكَثْرة ، ويشتمل على ثمانية فصول .

الباب العاشر : في سائر الأحوال والأوصاف المتضادة ، ويشتمل على ثمانية وثلاثين فصلاً . وتناول الألفاظ المختلفة أو المتضادة في المعنى كالسّعَة والضِّيق ، والقديم والجديد والرديء ، والحُسْن والقُبْح ، والسّمَن والهُزَال في الحيوان والانسان ، والغِنى والفَقْر ، والشجاعة والجُبْن .

الباب الحادي عشر : في المَلْء والامتلاء ، ونقيضهما إذا كان الشيء خالياً . ويقع في عشرة فصول .

الباب الثاني عشر : في الشيء بين الشيئين . ويشتمل على خمسة فصول تناول فيها ألفاظاً تدل على توسط الشيء بين شيئين كالبَرْزخ : ما بين كل شيئين ، والسُّدْفة : ما بين المغرب والشّفَق ... الخ .

الباب الثالث عشر : في ضروب الألوان والآثار ، ويقع في تسعة وعشرين فصلاً .

الباب الرابع عشر : في أسنان الدّوابّ والناس (أي في أعمارهم) ويضم سبعة عشر فصلاً ، منها : في ترتيب سنّ الغلام ، وفي ترتيب أحوال ونقل السنّ به الى أن يتناهى شبابه ، وفي ظهور الشّيب ، وفي الشيخوخة والكِبَر ، وفي ترتيب سنِّ البعير ، وفي سِنّ الفرس ، وفي سن البقرة الوحشية ، وفي سن البقرة الأهلية ، وفي سن الظبي .

الباب الخامس عشر : في الأصول والرؤوس والأعضاء والأطراف وأوصافها وما يتولد منها ويتصل بها ويذكر معها . ويتألف من سبعة وخمسين فصلاً تناولت الألفاظ المتعلقة بأجزاء جسم الانسان والحيوان والعوارض العارضة لهما كالرؤوس ، والشّعَر ،والحاجب ، والعين ، والنظر وهيئته ، والأنوف ، والشِّفاه ، والأسنان ، وترتيب البُكَاء والضَّحِك ، وأوصاف العُنُق ... الخ .

الباب السادس عشر : في صفة الأمراض والأدواء ، وذكر الموت والقتل ، ويضم أربعة وعشرين فصلاً .

الباب السابع عشر : في ذكر ضروب الحيوان وأوصافها ، ويقع في خمسة وثلاثين فصلاً.

الباب الثامن عشر : في ذكر أحوال وأفعال الانسان وغيره من الحيوان ، ويضم ثلاثة وعشرين فصلاً ، وتناول الألفاظ المتعلقة بمختلف شؤون الانسان والحيوان كالنوم والجوع والعطش والأكل والشرب والعداوة والبغضاء والسرور والحزن وغيرها .

الباب التاسع عشر : في الحركات والأشكال والهيئات وضروب الضرب ، والرمي . ويقع في تسعة وثلاثين فصلاً .

الباب العشرون : في الأصوات وحكاياتها . ويقع في ثلاثة وعشرين فصلاً .

الباب الحادي والعشرون : في الجماعات ، ويقع في أربعة عشر فصلاً تناولت الألفاظ المتعلقة بالجماعات ، كترتيب جماعات الناس وتدرجها من القلّة الى الكثرة ، وتدرج القبيلة من الكثرة الى القلّة ، وترتيب العساكر ، وترتيب جماعات الحيوان ، كجماعات الخيل والإبل والضأن والمعز ... الخ .

الباب الثاني والعشرون : في القَطْع والانقطاع وما يقاربه من الشّقّ والكَسْر وما يتصل بهما . ويقع في ستة وعشرين فصلاً .

الباب الثالث والعشرون : في اللباس وما يتصل به والسلاح وما ينضاف اليه وسائر الآلات والأدوات وما يأخذ مأخذها . ويشتمل على تسعة وأربعين فصلاً .

الباب الرابع والعشرون : في الأطعمة والأشربة وما يناسبها. ويقع في سبعة عشر فصلاً.

الباب الخامس والعشرون : في الآثار العُلْويّة وما يتلو الأمطار من ذكر المياه وأماكنها ويشتمل على ثمانية عشر فصلاً تتناول الألفاظ المتعلقة بالمياه وأماكنها والرّياح والسّحَاب والمطر والأزمِنة والأنهار والآبار والحياض والسّيْل ... الخ .

الباب السادس والعشرون : في الأرضين والرّمال والجبال والأماكن والمواضع وما يتصل بها . ويقع في سبعة عشر فصلاً .

الباب السابع والعشرون : في الحجارة ، ويقع في ثلاثة فصول .

الباب الثامن والعشرون : في النّبْت والزَرْع والنخل ، ويشتمل على سبعة فصول .

الباب التاسع والعشرون : فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية ، ويقع في خمسة فصول تشتمل على ألفاظ عربية مستعملة في الفارسية وألفاظ فارسية مستعملة في العربية .

الباب الثلاثون : في فنون مختلفة الترتيب في الأسماء والأفعال والصفات ، ويقع في تسعة وعشرين فصلاً ، تتناول ألفاظاً في قضايا مختلفة كأسماء النار والدواهي والوصف بالبعد والدنوّ وأسماء الهدايا والعطايا الراجعة الى معطيها والعموم والخصوص والظهور وتعديد ساعات النهار والليل على أربع وعشرين لفظة والمنع والحَبْس والسقوط واللمعان والصعود والتمام والكمال ... الخ .

نصوص من الكتاب

في تحديد ساعات النهار على أربع وعشرين لفظة

" ساعات النهار : الشُّروق ، ثم البُكُور ، ثم الغُدْوة ، ثم الضُّحى ، ثم الهاجِرة ، ثم الظّهِيرة ، ثم الرَّوَاح ، ثم العَصْر ، ثم القَصْر ، ثم الأَصِيل ، ثم العَشِيّ ، ثم الغروب . ساعات الليل : الشّفَق ، ثم الغَسَق ، ثم السُّدْفة ، ثم الجَهْمة ، ثم الزلّة ، ثم الزلفة ، ثم البهرة ، ثم السَّحَر ، ثم الفَجْر ، ثم الصُّبْح ، ثم الصباح " .

في الثياب المصبوغة التي تعرفها العرب

" ثوب مُشْرَق : إذا كان مصبوغاً بطين أحمر يقال له الشَرق . ثوب مُجْسد : إذا كان مصبوغاً بالجِساد (وهو الزّعفَران) . ثوب مُبَهْرم : اذا كان مصبوغاً بالبَهْرَمان (وهو العُصْفُر) . ثوب مورّس : إذا كان مصبوغاً بالوَرْس (وهو آخو الزعفران ولا يكون الا باليمن) . ثوب مُزَبْرَق : إذا كان مصبوغاً بلون الزبرقان (وهو القمر) . ثوب مهريٌ : إذا كان مصبوغاً بلون الشمس " .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

مؤلفه : أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، المولود في سنة ٧٥٦ هـ والمتوفى في سنة ٨٢١ هـ . هذا الكتاب يعد – بحق – من الموسوعات الكبرى في التراث العربي ، وقد استقصى مؤلفه المعارف والفنون المختلفة في اللغة والتأريخ والكتابة والشعر والعلوم الأدبية الأخرى ، يضاف إليها ما تضمنه من معارف نادرة في العلوم العقلية والتطبيقية من حكمة ومنطق وفلسفة وحساب وهندسة وفلك وجغرافيا ... الخ وقد قيل في وصف الكتاب : " كتاب جليل القدْر ، عظيم النفع ، كبير الفائدة ، لم يُنْسَج على منواله في عالم التأليف في فنون الأدب والكتابة ، ولا نعد مبالغين إذا قلنا : إنّه أنفس كتاب أُلف في اللغة العربية وتأريخ آدابها .[٢٢]

والكتاب فضلاً عن أنه موسوعة في العربية وآدابها عموماً ، فهو موسوعة في فن الخط والكتابة خصوصاً ، رتبه المؤلف على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة . تناول فيها :

---

[٢٢] من مقدمة الشيخ محمد عبد الرسول رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي بالمطبعة الأميرية / القاهرة ، وفيها تعريف بالكتاب وترجمة مختصرة لمؤلفه . وما ذكرناه لاحقاً في موضوعات الكتاب هو مختصر من هذه المقدمة .

ديوان الانشاء وأصل وضعه في الاسلام ، وتفرقه بعد ذلك في الممالك ، وبيان كتابة الانشاء وتفضيلها على سائر أنواع الكتابة ، وصفات الكُتّاب وآدابهم ، ومدح فضلائهم وذمّ حمقاهم .

ومعرفة كل ما يحتاج إليه كاتب الانشاء في الأمور العلمية والعملية : كمعرفة المواد اللازمة للمُنْشيء من الخط وتوابعه ولواحقه .

ومعرفة المسالك والممالك (علم تقويم البلدان) : كمعرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها وبيان جهاتها الأربع ، وما اشتملت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية ، وبيان موقع الأقاليم وحدودها وما فيها من الجبال والبحار والأنهار والأقاليم والممالك والبلدان وملوكها في القديم والحديث .

ومعرفة الأمور التي تشترك بها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها : من ذكر الأسماء والكُنَى ومواضع ذكرهما في المكاتبات ، وذكر الألقاب وأصل وضعها ، وما كان يلقب به أهل كل دولة الى زمنه ، وكيفية توزيع الأعمال على كُتّاب الإنشاء ، ومقادير قَطْع الوَرَق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قوانين الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكاتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، ومصطلح المكاتبات الدائرة بين كُتّاب الإسلام ، وكتب النبي (ص) الى أهل الاسلام وغيرهم ، والكتب الصادرة عن الصحابة والخلفاء والملوك ومَنْ في معناهم ، وبيان مذاهب الكُتّاب فيما تفتتح به المكاتبات ، وما يخاطب به أهل الاسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والعهود ، ومعناهما ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب ؛ من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يكتب فيها في القديم والحديث ، والمسامحات ، والإطلاقات وما يكتب فيهما ، وتحويل السنين القمرية والشمسية ، وما يكتب في التذاكر التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ، وأول من وضع ديوان الجيش في الإسلام .

ومعرفة الأيْمان وما يقع به القَسَم ، والأيْمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان يحلف بها العرب في الجاهلية ، وم يُقْسم به أهل كل مِلَّة و نِحْلة .

ومعرفة عقود الأمانات والصلح ، والهدن الواقعة بين ملوك الأعلام وغيرهم .

وفي الكتاب كثير من القضايا المتعلقة بديوان الإنشاء ، كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزو والصيد ، ورسائل المدح والذمّ ، ورسائل المفاخرات بين الأشياء ، والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، وما يكتب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازات بالفتوى والتدريس والمرويات ، وما يكتب على الكتب المصنّفة والقصائد من التقريظات ... الخ .

وتكلم فيه على البريد ، وأول مَنْ وضعه في الجاهلية والاسلام وبيان معالمه ومراكزه ، ومطارات الحَمَام الرسائلي وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامية ... الخ .

وفي الكتاب الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والحكم العربية وأقوال أئمة اللغة والمفسرين والمُحدّثين والفقهاء ، وأسماء الكتب في مختلف الفنون ، ومشاهير المؤلفين والعلماء وفيه الكثير من الرسائل البليغة لمشاهير الكُتّاب والأدباء .

كلمة " كاتب " ومعانيها في العربية

من معاني مادة (كتب) في اللغة : الخط . يقال كَتب الشيء يَكْتُبه كَتْبا وكتابا وكتابة بمعنى خطّه ، والكتاب الذي هو اسم لما يكتب مجموعاً خُصّص معناه بالمُؤْلَّف الذي يقوم بتأليفه واحد أو أكثر .

أما (الكاتب) – وهي صيغة اسم الفاعل من كَتَب – فقد اطلقت على وظيفة ادارية كان لها شأن كبير في الدولتين الأموية والعباسية ، حتى ان كلمة الكاتب في أواخر الدولة الأموية كانت تدل على ما تدل عليه كلمة (وزير) في الدولة العباسية .

وتجمع كلمة (كاتب) على (كُتّاب) و (كَتَبة) . وكوّن الكُتّاب طبقة اتخذها الخلفاء والوزراء والأمراء لأداء المهام المتعلقة بالأمور الكتابية في الدولتين الأموية والعباسية . وأكّد الحاجة الى هذه الوظيفة – كما يقول ابن خلدون – " شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد ، فصار الكاتب يؤدى كُنْه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر " .

ومعنى النص أن السبب في اتّخاذ الكُتّاب هو الحاجة الى التعبير عن المقاصد على نحو دقيق واضح ، واللغة بما فيها من أساليب بلاغية متعددة قادرة على هذا التعبير ، وربما كانت الكتابة أدق تعبيراً من الكلام .

وكان لعدد كبير من الكُتّاب مراكز مهمة في الدولة لا تقل عن مرتبة الوزير ، وبخاصة قبل استحداث هذا المنصب في بداية الخلافة العباسية .

وتطورت أعمال الكتابة بتطور الدولة وتعدد شؤونها ، ولما كانت العناية بالتأليف والنقل والترجمة تزداد باتساع المجال الثقافي وإقبال الناس على المطالعة والمذاكرة واحتاج العلماء على اختلاف أصنافهم وتخصصاتهم الى نشر أوسع لكتبهم ومؤلفاتهم ، ظهرت طبقة تدعى بـ (الورّاقين) كانت تستنسخ الكتب وتروجها بين الناس .

وبذلك أخذ المدلول السياسي والاداري لكلمة كاتب يشاركه مدلول آخر خاص بالناحية الثقافية . وكان الكاتب يختار في أيام الراشدين وصدر من الدولة الأموية باعتبار النسَب والقرابة من الخليفة أو الأمير لأنه موضع الثقة والأمانة . وبتطور الدولة فيما بعد لم يراع هذا الاعتبار وأصبح الاختيار يتم وفقاً للإجادة في المهنة وصار من جملة الصفات التي يتم بها اختيار الكاتب – كما ذكر ابن خلدون – أن يكون " من أرفع طبقات الناس ، وأهل المُروءة والحشْمة منهم ، وزيادة في العلم وعارضة البلاغة ، فإنّه معرّض للنظر في أصول العلم لما يُعْرِضُ في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم ، من أمثال ذلك ما تدعو إليه عِشْرة الملوك من القيام على الآداب والتَخلُّق بالفضائل ، مع ما يُضطَرّ إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها " وبناءً على ما تقدم يمكن أن نلاحظ مدلولين كبيرين لكلمة (كاتب) في العربية :

المدلول الأول : سياسي وإداري ، ويطلق على وظيفة يفوضها الخليفة أو السلطان او الوزير الى شخص جمع عدة صفات وتثقّف بعدة ثقافات ، ويكون موضع أمانته وثقته ، ويقوم بجميع الشؤون الكتابية نيابة عنه وبعد عرضها عليه .

المدلول الثاني : ثقافي علمي ، ويطلق على المُؤلّف للكُتب عالماً كان أو أديباً .

الأسلوب القرآني

مقدمة في تأريخ القرآن الكريم

المشهور بين المفسرين أن القرآن الكريم نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا في ليلة القدر وهي ليلة من ليالي شهر رمضان . ونص القرآن على ذلك في قوله تعالى من سورة القدر (آية / ١) " إنّا أنزلناه في ليلة القدر " . وفي موضع آخر في سورة الدخان (آية / ٣) " إنّا أنزلناه في ليلة مباركة " . وقال في سورة البقرة (آية / ١٨٥) " شهر رمضان الّذي أُنْزل فيه القرآن" وهذه إشارات واضحة الى أن نزول القرآن كان في شهر رمضان . ومن ثم نزل منجماً وحْياً على الرسول (ص) في يوم مبعثه واستمر بالنزول في مكة والمدينة الى قبيل وفاته (ص) .

وأمّا تحديد ليلة القدر ففيه خلاف بين المفسّرين . والمروي عن أئمة أهل البيت (ع) أنها ليلة من ثلاث ليال ، الليلة التاسعة عشرة والليلة الواحدة والعشرون والليلة الثالثة والعشرون وهي المرجحة .

والمشهور بين المفسّرين أيضاً أن أول ما نزل من القرآن على رسول الله (ص) قوله تعالى من سورة العَلَقْ " إقرأ باسم ربك الّذي خَلَق " . قال ابن النديم في كتابه الفهرست : " أول ما نزل من القرآن على النبي (ص) إقرأ باسم ربك الذي خلق ، الى قوله : علّمَ الانسان ما لم يَعْلَمْ " .

وقال أبو عبيدة في كتاب فضائل القرآن " إن أول ما نزل من القرآن : اقرأ باسم ربك ، و ن والقَلَمِ " .

وبقي الوحي فترة من الزمن لا ينزل على النبي إذ لم تنزل عليه آية بعد " اقرأ باسم ربك " ، ثم أخذ القرآن ينزل بعدها على النّبي مُنَجّماً أي مُجزّأً ومُفرّقَاً . وكانت أكثر

سورة تنزل عليه مفرقة ، والأمثلة لذلك كثيرة ، فمن السور القصار : سورة (اقرأ) الى قوله تعالى (ما لم يعلم) ، وسورة (الضُّحى) الى قوله تعالى (فترضى) .

ونزلت بعض السور جميعها دفعة واحدة ، منها سورة (الفاتحة) و (تبّت) و (الإخلاص) و (الكوثر) و (النصر) و (المُرْسَلات) وقد صحَّ في الأخبار نزول خمس آيات وعشر آيات دفعة واحدة .

تدوين القرآن وجمعه

كان للنبي كُتّاب يكتبون الوحي بالخط المألوف في بيئة الحجاز وهو قريب من النسخ وقد أُحصي عددهم ثلاثة وأربعين كاتباً أشهرهم : الخلفاء الأربعة ، وسعيد بن العاص ، وزيد بن ثابت ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن رواحة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . وكان ألزمهم للنبي وأكثرهم كتابة له علي بن أبي طالب (ع) وزيد بن ثابت .

وعني النبي عناية كبيرة بكتابة القرآن في عهده وبحضرته بكل إتقان وضبط وعُرض عليه عدة مرات . وكان يكتب في العُسُب واللِّخاف ، والرّقاع ، وأحياناً في الحرير وقِطَع الأديم والأكتاف [٢٣] . قال ابن النديم " كان القرآن مكتوباً بين يدي رسول الله في اللخاف والعسب وأكتاف الإبل ، وروى عن البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال "تتبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعسب وصدور الرجال " .

---

[٢٣] اللِّخاف : جمع لِخْفة وهي الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة . العُسُب جمع عَسيب وهو جريد النخل ، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض . والأكتاف جمع كَتِف : وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون فيه بعد أن يجف . وكان يكتب في الأقتاب : جمع قتب : وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه . وقطع الأديم : أي الجِلْد .

وتدوين القرآن قديم حدث في أيام الرسول (ص) الا أنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب والقرطاس . ووردت روايات في أن وضع الآيات في مواضعها من القرآن بأمره وأنها بتوقيفه وهو دليل على أن آيات القرآن كتبت بين يديه .

ووردت إشارات تفيد أن بعض الصحابة قد جمع القرآن في حياة الرسول (ص) ، فمنهم من جمعه كله ، ومنهم من أكمل جمعه بعد وفاة الرسول (ص) .

وجُمّاع القرآن في عهد النبي كما ذكرهم ابن النديم : علي بن أبي طالب (ع) وسعد بن عبيد بن النعمان وأبو الدرداء ، ومُعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأُبيّ بن كعب ، وعبيد بن معاوية ، وزيد بن ثابت . وذكرت بعض المصادر أن علياً (ع) كتب القرآن على ترتيب النزول وقدم المنسوخ على الناسخ .

وبعد وفاة الرسول (ص) وقيام المرتدين جهز أبو بكر جيشاً لمحاربة مُسَيْلِمة وأتباعه . وكان معظم الجيش من القُرّاء وحَفَظَة القرآن واستحرّبهم القتل في معركة اليمامة ، وكان ذلك من أول الأسباب التي أوجبت جمع القرآن في مصحف واحد . وتشير المصادر التأريخية الى أن عمر بن الخطّاب هو الذي أشار على أبي بكر بضرورة جمع القرآن في مصحف ، فأمر أبو بكر بجمع القرآن في قطع الجلد المدبوغ حفظاً له بعد أن قتل كثير من قرّائه وحُفّاظه في معارك المسلمين مع المرتدّين .

ولما كثرت الفتوح على عهدي عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان ، تعددت القراءات القرآنية لعدة عوامل منها : اختلاف اللهجات العربية ، فأوصى حذيفة بن اليمَان – وكان يغازي في فتح إرمينية وأذربيجان - عثمان بن عفان بجمع المسلمين على مصحف واحد وقراءة واحدة منعاً لاختلافهم وتوحيداً لهم في قراءة القرآن بلغة واحدة متفق عليها . وذكر ابن النديم أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الامة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود

والنصارى ، فأرسل عثمان الى حفصة أن ارسلي الينا بالمصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف .

وفي رواية اخرى جمع عثمان – لانجاز هذا العمل – اثني عشر رجلاً من قريش ، فكتبوا القرآن كما عرض على النبي (ص) العرضة الأخيرة . ونسخوا أربعة مصاحف ، احتفظ عثمان بواحد منها ، وأرسل الثلاثة الى البصرة والكوفة والشام ، فقرأ كل مِصْر بما في مصحفه .

ومما تقدم يظهر لنا أن جمع القرآن مر بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : جمعه في عهد النبي وهو جمع الآيات في العسب واللخاف والرقاع والأكتاف وما أشبهها مما كان يكتب فيه ، ثم عرضه على النبي . وجمع بعض الصحابة للقرآن في عهد النبي (ص) أيضاً .

المرحلة الثانية : جَمْعه في عهد أبي بكر ، وهو جمع القرآن في مصحف واحد . والمشهور أن علياً (ع) تفرغ لجمع القرآن بعيد وفاة الرسول (ص) فجمعه كاملاً .

المرحلة الثالثة : جمعه في عهد عثمان بن عفان ، وهو جمع المسلمين على قراءة واحدة للنص القرآني .

وضع الشّكْل (الحَرَكات) في القرآن الكريم

كانت المصاحف في أول أمرها مجردة من الشكل (الحركات) ولم يكن الخط المستعمل في كتابتها مضبوطاً بالحركات والسكنات ، وكان العرب يعتمدون في قراءتهم القراءة الصحيحة على حسّهِم اللغوي وفصاحتهم الأصيلة في نطق الكلمات والحروف وإخراجها مخرجاً صحيحاً ، والابتعاد عن اللّحْن ، وهو الغلط في الكلمات والحركات .

ولما ظهرت عوامل الفساد في الألسنة وشاع اللحن بين الناس فكّر بعض المصلحين في وضع ضوابط على الكلمات تقي اللسان من اللحن . وينسب الى أبي الأسود الدُّؤلي تلميذ الامام علي (ع) وضع علامات الاعراب ، ولكن على نحو يختلف عمّا نألفه الآن ، وخلاصة ما وضعه كما يأتي : استعمال نقاط تكتب بلون يختلف عن اللون الذي كتبت به الحروف في المصحف :

علامة الفتحة = نقطة واحدة فوق الحرف .

علامة الكسرة = نقطة واحدة أسفل الحرف .

علامة الضمة = نقطة واحدة بين الحرف .

علامة التنوين = نقطتان فوق الحرف أو تحته أو بينه بحسب اختلاف التنوين .

وجرى الناس في عهد أبي الأسود على وضع نقطتين الواحدة فوق الاخرى علامة على أن النون مُظْهَرة .

ووضع أهل المدينة للحرف المُشدّد علامة على شكل قوس طرفاه الى الأعلى وزاد أتباع أبي الأسود في العلامات ، فوضعوا للسكون جرّة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه سواء كان همزة أم غير همزة ، هكذا (ـ) ولألف الوصل جَرّة في أعلاها متصلة بها وإن كان قبلها فتحة ، وفي أسفلها إن كان قبلها كسرة ، وفي وسطها إن كان قبلها ضمة.

وضع الإعجام (النَّقْط) في القرآن

الإعجام : هو تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللَّبْس . وأمثلته في الحروف العربية واضحة ومعروفة ، فالياء والتاء والثاء تشترك جميعها بتشابه في الرسم ، أو أن رسمها واحد لولا النقط ، كذلك الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والزاي والقاف مع القاف الأولية والوسطية .

والمشهور أن الإعجام قد وضع في عهد عبد الملك ، ولكن بعض الدراسات أفادت أنه كان معروفاً حتى قبل الاسلام لتشابه كثير من الحروف العربية في رسمها ولكنهم تساهلوا في استعماله حتى بطل من الاستعمال ولم يبق منه الا الشيء القليل .

وفي خلافة عبد الملك شدّد على كُتّابه بضرورة استعمال النَّقْط . ولما كان أمر النقط في قراءة القرآن ضروري جداً في بيان المراد من الكلمة نحو (فنَشرها) بالراء أو بالزاي و (لتكون آيةً لَمنْ خَلفَك) بالفاء ، أو (لمن خَلقَك) بالقاف ... وغيرها من النظائر الكثيرة الواردة في القرآن ، فقد دعا الحجاج – وكان حينذاك أميراً على العراق إذ شاع فيه التصحيف في كتابة القرآن أو في قراءته – الى أن يبعث الى نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يَعْمُر تلميذي أبي الأسود ويطلب إليهما وضع علامات لتمييز الحروف المهملة من المعجمة ، فأدخلا الاصلاح الثاني في الخط ، وهو أن توضع النقط أفراداً وأزواجاً لتمييز الأحرف المتشابهة كما نرسمها الآن .

ولما كان الشكل – أي الحركات والسكنات – يوضع بطريق النَّقْط أيضاً ما يُخلّ بالكلمة ولا تعرف العلامة التي على الحروف أهي شكل أو إعجام ؟ فقد درجوا على تمييزها باللون ، فكانت الحركة تكتب – مثلاً – باللون الأحمر ، والإعجام يكتب بلون يخالف الأحمر .

وجرى أهل الأندلس – فيما بعد – على استعمال أربعة ألوان في المصاحف : السواد للحروف ، والحُمْرة للشكل بطريقة النقط ، والصُّفْرة للهمزات ، والخُضْرة لألفات الوصل .

واقتصرت وطريقة أبي الأسود وأتباعه على المصاحف فقط حفظاً لقواعد قراءة القرآن الكريم .

مظاهر الاسلوب القرآني

للقرآن اسلوب خاص متميز لا يعرف إلاّ به . وهو يمثل نمطاً جديداً من الأساليب النثرية العربية وإعجازه كامن في هذا النمط المعين . ولذلك وقف منه العرب – وهم أصحاب لسان وفصاحة وبيان – موقف المعجب المندهش ، فنسبه المشركون الى كلام الجن تارة ، والى كلام السِّحْر تارة أخرى . ويروى عن الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول (ص) أنه قال حين سمع آياً من القرآن : والله لقد سمعتُ من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنْس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطُلاوةً وإن أعلاه لمُثْمر ، وإن أسفله لمُغْدِق [٢٤] .

وقد تحداهم القرآن على أن يأتوا بسورة من مثله . قال الجاحظ في بيان ذلك : " بعث الله محمداً – عليه الصلاة والسلام – في زمن أكثر ما كانت العرب فيه شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغةً ، وأشدُّ ما كانت عُدّةً ، فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته ، دعاهم بالحُجّة ، فلما قطع العُذْر وأزال الشُبْهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحَمِيّة دون الجَهْل والحَيْرة ، نصبوا له الحرب ونصب لهم . وهو في ذلك يجتمع عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء الى معارضته إنْ كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة . فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لهم بعَجْزهم عنها قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال ؛ فهاتوا ولو مفتريات ، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ولا طمعَ فيه شاعر . ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه عارض وناقَض . فدلّ ذلك العاقل على عَجْز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض الشعراء من أصحابه والخطباء من أُمّته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأبلغَ في تكذيبه وأسرعَ في تفريق أتباعه

---

[٢٤] مُغْدِق : كثير المياه .

عن بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الأموال . وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والفضل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخُطَب الطوال البليغة والقصائد الموجزة ولهم الأسجاع واللفظ المنثور ... " .

ووصف أحد الباحثين المحْدثين أسلوب القرآن بقوله : " وهو يمتاز باسلوب خاص به ليس شعراً ولا نثراً مسجوعاً ، وإنما هو نَظْم بديع فُصِلت آياته بفواصل تنتهي وتطمئن النفس الى الوقوف عندها وتتنوع الفواصل بين طوال وقصار ومتوسطة بتنوع موضوعاته وتنوع المخاطبين ، فقد كان يغلب عليه الإيجاز والإشارة في بدء الدعوة قبل الهجرة حين كان يدعو الى عبادة الله ونبذ الديانة الوثنية ، والإيمان بالبعث والنشور ، فلما انتقل الرسول عليه السلام الى المدينة غلب عليه البَسْط والإطناب لبيان نُظُم الشريعة وما ينبغي أن يكون عليه نظام الحياة الاجتماعية مما تقتضيه مصالح البشر في حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة " .

ويمكن أن نوجز مظاهر الأسلوب القرآني في الامور الآتية :

اولاً – أساليب السور المكية والمدنية

أ- السور المكيّة القصار :

١- تمتاز عموماً بالنزعة الخطابية المباشرة ، وبفقرات قصيرة مسجوعة . والأمثلة لذلك كثيرة ، منها قوله تعالى في سورة المعارج " كَلاّ إنها لَظَى نَزّاعَةً للشّوى تدعو مَنْ أدبَرَ وتَولّى وجمع فأوعَى إن الانسان خُلقَ هلوعاً إذا مسّهُ الشّرُ جَزُوعَاً وإذا مَسّهُ الخيْرُ مَنُوْعاً إلا المُصلّيْن الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حقُ معلوم للسائل والمحروم والذين يُصَدّقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربّهِم مشْفقون إن عذابَ ربّهم غيرُ مأمون .. " .

٢- استعمال القسم على نحو شديد كقوله تعالى من سورة النازعات " والنّازِعاتِ غَرْقاً والنّاشِطاتِ نَشْطاً والسابحات سَبْحاً فالسّابقاتِ سبْقاً فالمُدبِّرات أمراً.. ".

٣- استعمال جُمَل مُصدّرة بإذا الشرطية ، كقوله تعالى من سورة التكوير " إذا الشمسُ كُوّرت ، وإذا النّجُوم انكدرتْ وإذا الجِبالُ سُيّرتْ وإذا العِشارُ عُطّلَتْ وإذا الوُحُوش حُشِرتْ " .

ب- السور المكية الطوال :

١- لا تتقيد بقصر الفقرات ولكن يسود فيها النفس الخطابي والحملة على المشركين .

٢- قلّما يُعدل فيها الى الأسلوب الجَدَلي او التشريعي الذي نراه في السور المدنية.

ت- السور المدنية :

١- تمتاز بطولها وبطول الفقرات كقوله تعالى في سورة آل عمران (٢٩ / ٣٠) " إن الدِّين عند الله الإسلام وما اخْتَلَفَ الذين أُوتوا الكتابَ إلا من بعد ما جاءهم العِلْمُ بَغْيَاً بينهم ومَنْ يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب فإن حاجُّوك فقلْ أسلمتُ وَجْهي لله ومَنْ اتّبعني وقل للذين أُوتوا الكتاب والأُميّينَ أأسْلمتم ؟ فإن أسْلَموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما عليك البلاغُ والله بصير بالعباد " .

٢- النزعة الجدلية والتشريعية واضحة فيها ، ومن الأمثلة لذلك قوله تعالى في سورة آل عمران (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧) " يا أهل الكِتاب لِمَ تُحاجّون في ابراهيم وما أُنْزِلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون هأَنْتُمْ هؤلاء حاججتم فيما لكم به علْمُ فلِمَ تُحاجّونَ فيما ليس لكم به عِلْم والله يعلم وأنتم لا تعْلَمُون ما كان ابراهيم يهوديّاً ولا نصْرانيّاً ولكنْ كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إنّ أولى النّاسِ بإبراهيمَ للّذين إتّبعُوه وهذا النّبيُّ والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين " وفي قوله تعالى من سورة البقرة (٢٥٧) خيرُ مثال على النزعة الجدلية في السور المدنية والقصة تدور حول حِجاج بين إبراهيم وأحد الملوك

الكافرين في وحدانية الله وقدرته بدلائل منطقية قائمة على الحِسّ والمشاهدة تتخذ من الشمس ومسيرها وهي أفضل دليل حِسّي لا يختلف فيه إثنان برهاناً على صدق دعوى إبراهيم . قال تعالى " ألم تَرَ الى الّذي حاجّ إبراهيم في رَبّه أن أتاه الله المُلْكَ إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت . قال : أنا أُحيي وأُميت. قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المَشْرق فَأْتِ بها من المَغْرب فبُهِتَ الذي كَفَر والله لا يهدي القوم الظالمين".

وبالمقارنة بين السور المكية والمدنية الطوال نلاحظ الفرق بينهما ومن الفروق المهمة رعاية حال المخاطب ، ولما كانت البلاغة هي مطابقة للكلام لمقتضى الحال فقد راعى الأسلوب القرآني حال المخاطبين وتغيرت عباراته بتغير هذه الحال . وقد أشار أحد النُقّاد المتقدمين في التراث وهو أبو هلال العسكري الى ذلك قائلاً " قد رأينا أن الله تعالى اذا خاطب العرب و الأعراب أخرج الكلام مُخْرج الاشارة والوحي ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً ، وقلّما نجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطوّلة مشروحة ومكررة في مواضع معادة لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم .

ثانياً – دقّة الإشارة

ويقصد بها الإيجاز أو عرض المعنى بأقل ما يكون من الألفاظ أو العبارات مثل قوله تعالى في سورة الزمر (٢٢) " أفَمَنْ شَرَحَ صَدْرهُ للإسلام فهو على نورٍ من ربّهِ فَوَيْل للقاسية قُلُوبهم " المحذوف خبر تقديره (كالقاسية قلوبهم) أي : أفمن شرح صدره للإسلام فهو على نور من ربه كالقاسية قلوبهم .. " إذ عقد المشابهة بين الّذين شرح الله صدرهم للإسلام والذين قست قلوبهم ، وهي مشابهة لبيان الفرْق الكبير بين الفئتين.

ومثلها أيضاً قوله تعالى في سورة الزمر (٢٤) " أفَمَنْ يَتّقِي بوَجْهه سُوْءَ العَذَاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون " والخبر المقدّر (كمن هو آمن منه) أي : أفَمَنْ يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن منه .. الخ فالإيجاز ودقة

العبارة ظاهرتان على الخبر المحذوف . وقد عقد مشابهة بين الذي يتقي بوجهه سوء العذاب والذي هو في مأمن من هذا العذاب ، واستعمل همزة الاستفهام في قوله (أَفَمَنْ) وهو استفهام يراد به الإنكار .

ثالثاً – حُسْن الايقاع

ويقصد به " وصف الكلام وصْفاً متناسب الأجزاء ويحصل من تلاؤم الألفاظ والعبارات تلاؤماً ترتاح إليه النفوس " .

ويغلب على الأسلوب القرآني وبخاصة في موارد السّجَع قوة سَبْك العبارة ومناسبتها للشعور النفسي عُنْفاً في مواضع العُنف ورِقّة في مواضع الرِقّة ، ويكثر فيه التفخيم وتكرير العبارات والتمثيل وتقديم الصفة على الموصوف وما شاكلها من ضروب البلاغة .

ومن أمثلة حُسْن الإيقاع :

أ- تقديم ما هو مؤخر في الزمان ، نحو قوله تعالى " فللّه الآخرةُ والأولى " .
ب- تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة نحو قوله تعالى " ونُخْرِجُ له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً " .
ت- إيراد أحد القِسْمين غير مطابق للآخر نحو قوله تعالى " ولَيَعْلَمنَّ اللهُ الذين صدقوا ولَيَعلمَنّ الكاذبين " .
ث- حذف المفعول نحو قوله تعالى " ما ودّعكَ ربُّكَ وما قَلى " أي : وما قلاكَ .
ج- الاستغناء بالإفراد عن التثنية نحو قوله تعالى " فلا يُخرجنّكُما من الجنّةِ فتشقى" بدل (فتشقيان) .
ح- إجراء غير العاقل مَجْرى العاقل ، نحو قوله تعالى " رأيتَهُم لي ساجدين " عن (القمر والنجوم) .

خ- العدول عن الماضي الى الحاضر ، نحو قوله تعالى " فريقاً كذّبْتم وفريقاً تقتلون".

د- تغيير بِنْية الكلمة ، نحو قوله تعالى " طُورِ سِنين " بدل (سَيْناء) .

ذ- وقوع اسم المفعول بدل الفاعل ، نحو قوله تعالى " حِجاباً مَسْتوراً " بدل "ساتر".

رابعاً – الانتقال

ويقصد به الانتقال من صيغة الى صيغة اخرى . ويطلق علماء البلاغة على هذا الفن اسم الالتفات ، مثاله قوله تعالى في سورة فصلت (٤٠) " إنّ الذين يُلْحِدون في آياتنا لا يَخْفون علينا أَفَمَنْ يُلقى في النار خَيْرٌ أم مَنْ يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شِئْتم إنه بما تعملون بصير " انتقل من الخبر الى السؤال الى الأمر .

وقوله تعالى من سورة طه (٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠) " فأتْبعهم فرعونُ بجنوده فغَشِيَهُم من اليَمّ ما غشِيهم وأضلّ فرعونُ قومَهُ وما هدى يا بني إسرائيلَ قد أنجيناكم من عَدُوّكم وواعدناكم جانبَ الطُّور الأيمن .. " انتقل من الخبر الى النداء .

والغرض من الانتقال هو لخصوصية بلاغية ، كالتعظيم أو التحقير أو التوكيد أو الإيضاح . وينجلي ذلك وضوحاً في قوله تعالى من سورة الكهف (٤٧ ، ٤٨) يصف يوم الحساب " ويوم نسَيّرُ الجِبالَ وترَى الأرضَ بارزةً وحشرْناهُمْ فلم نُغادرْ منهُم أحَداً وعُرِضوا على ربِّكَ صَفّاً .. " حيث انتقل من المضارع الى الماضي ، ومن المعلوم الى المجهول .

خامساً – التمثيل

ويقصد به إبراز المُتخيَّل في صورة المُتَحَقّق ، والمُتوهّمِ في معرض المُتَيَقّن ، والغائب كأنّهُ مُشاهَد .

وأمثلة القرآن قسمان :

أحدهما : التشبيه الظاهر ، كقوله تعالى من سورة البقرة (١٧) في المنافقين " مَثَلُهُم كَمَثَل الّذي استَوْقَدَ ناراً فلمّا أضاءتْ ما حَوْلهُ ذهبَ اللهُ بنُورهم وتركهم في ظُلُمات لا يُبْصِرون " فالتمثيل بالنار المستوقدة من التشبيه الظاهر .

وقوله تعالى في سورة البقرة (١٩ ، ٢٠) : " او كَصيّبٍ من السماء فيه ظُلُماتٌ وَرَعْد وَبَرْق يجعلون أصابِعَهم في آذانِهِم من الصواعق حَذَر الموت والله مُحيطٌ بالكافرين يكادُ البَرْق يَخْطَفُ أبصارهم كُلّما أضاءَ لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلَمَ عليهم قاموا ولو شاء الله لَذَهَبَ بسمْعِهِم وأبصارِهِمْ إنّ الله على كل شيءٍ قدير " فالتشبيه في هذه الآية مركّب ، فقد شبّه حال المنافقين أو الكافرين بالصيّب أي المَطَر النازل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق .. الخ وهو تمثيل ظاهر .

ومثله قوله تعالى في سورة الرعد (١٦) " أمْ هل تستوي الظُلُمات والنور أمْ جَعلُوا لله شُرَكاء خَلَقوا كَخَلْقِهِ فتشابَهَ الخلْقُ عليهم " فالتمثيل – هنا – بالظلمات والنور وتشابه الخَلْق ، وكُلّه من الأمور الظاهرة .

ونحوَهُ – أيضاً – قوله تعالى من سورة الكهف (٤٥) " واضْرِب لهم مَثَلَ الحياة الدنيا كَماءٍ أنزلْناهُ من السّماءِ فاختلطَ به نباتُ الأرض فأصبح هَشِيماً تذروه الرياحُ وكان الله على كلِّ شيءٍ مُقتدراً " إذ شَبّهَ الحياة الدنيا كالماء النازل من السماء فاختلط به النبات وأصبح هشيماً تذروه الرياح في كل جانب .

ومن التمثيل الظاهر : قوله تعالى من سورة النور (٣٥) " الله نورُ السّموات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كِمِشْكاةٍ فيها مِصْباحٌ المِصْباح في زُجاجَة الزُّجاجَة كأنّها كَوْكَبٌ دُرّيٌّ يُوْقَدُ من شجرة مباركةٍ زَيْتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكَادُ زَيْتُها يُضِيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ نار نورٌ على نور يَهْدي الله لنوره مَنْ يشاءُ ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس والله بكُلّ شيءٍ عليم " فالتشبيه في هذه الآية مركّب ومتتابع وهو من التشبيهات النادرة إذ توالت تشبيهات الأشياء بعضها ببعض معتمدة على أجزائها وتسلسلها لتكون في الآخر تشبيهاً متكاملاً ،

فضرب الله مثلاً لنوره بالمِشْكَاة ، فَشبَّه نُورِهِ بمِشْكَاة فيها مصباح والمصباح في زجاجة والزجاجة كأنّها كوكب دُرّيٌّ .. الخ فالتشبيه مركب من أشياء مختلفة بعضها يعتمد على بعض وفي النهاية يعطينا صورة مركبة للمُشَبَّه الذي هو نور الله .

وهذا النوع من التمثيل هو على سبيل التشبيه أينما وجدتّه في القرآن ، ويأتي التمثيل الظاهر في القرآن على سبيل القَصَص والمواعظ والاعتبار ، وأمثلة كثيرة أيضاً.

القسم الآخر : تمثيل لا يقصد به التشبيه أو القَصَص ، وإنما هو كالأمثال المتضمنة حكماً بليغة ، ويكثر هذا النوع من التمثيل في القرآن ، ومنه :

((لن تَنالوا البرّ حتى تُنْفِقُوا مما تُحِبُّون)) .

((أَلَيْسَ الصُّبحُ بقريبٍ))

((قُلْ كُلٌ يَعْملُ على شاكلتِهِ))

((وعسَى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم))

((كلُّ نفْسٌ بما كَسَبتْ رهينةٌ))

((ما على الرسولِ الا البلاغ))

((كَمْ من فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبتْ فِئَةً كثيرةً))

((لا يُكلِّفُ الله نفساً الا وُسْعَها))

((قل هلْ يَسْتوي الخَبيثُ والطيّبُ ولو أعجَبك كَثْرةُ الخَبيث))

((وأما الزَبَدُ فيذْهَبُ جُفَاءً)) .

أثر القرآن في العربية

إن نزول القرآن يُعدُّ حدثاً عظيماً في تاريخ الحضارة الاسلامية ، فقد هيّأ بأسلوبه الخاص نمطاً معيناً من الأساليب في اللغة العربية ، وبفضله نشأت معظم الدراسات المعروفة في تأريخنا ، وأنشأ أسلوباً عقلياً وحضارياً في التفكير والعمل والعلاقات الاجتماعية العامة ، وفيما يأتي باختصار جوانب تأثير القرآن في العربية :

١- وضع ألفاظٍ تتضمن مصطلحات جديدة لم تكن معروفة قبل نزوله : والأمثلة لذلك كثيرة ومنها : الجنة ، والنار ، والكافر ، والمنافق ، والمسلم ، والمؤمن ، والقيامة ، والتقوى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصوم ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصّراط ، والثواب ، والعقاب ... الخ فهذه الألفاظ إما لم تكن معروفة ومستعملة قبل نزوله ثم استعملت فيه أول مرة ، وإمّا كانت مستعملة ولكنها لم تتضمن المدلولات والمعاني التي نفهمها منها والتي حدّدها القرآن نفسه .

٢- أثره في الأدب العربي ، شعره ونثره : وقد أثّر في الأسلوب إذ مال الشعر والنثر الى استعمال الكلمات الواضحة المفهومة والجمل القصيرة الموجزة ، وعني الشعر خاصة بموسيقية الألفاظ واختار ألفاظاً ذات حروف قليلة ليس فيها تنافر صوتي وابتعد عن الألفاظ الطويلة الثقيلة على السمع .

وأثّر أيضاً في المضمون إذ تضمن الأدب طاقات تعبيرية لا حدود لها ومعاني شريفة وأصيلة لم تكن معروفة من قبل وابتعد – في مواطن كثيرة – عن الفُحْش والهجاء المُقْذِع والعصبيات القبلية . ويتجلى أثره في المضمون بتحميل اللغة العربية محتوىً حضارياً وثقافياً فأصبحت بذلك لغة حضارية .

٣- أثره في الجانب الثقافي : ويبدو ذلك في أغلب العلوم والمعارف التي بدأت بفضله ، فالدراسات الدينية واللغوية والأدبية والعلمية بدأت بتأثير مباشر أو غير مباشر

من القرآن ، ما جعل العربية لغة العلم والثقافة ، واشتملت على كثير من الألفاظ والمصطلحات المتضمنة لمختلف النشاطات الثقافية .

٤- الإبقاء على لغة موحدة مع اختلاف العرب في لهجاتها ، والإبقاء على لغة فصحى يتفق عليها جميع العرب بعد شيوع اللهجات العامية وإنحسار الفصحى من لغة التخاطب والكلام .

الرسائل النبوية

امتازت الفترة التي تلت الهجرة النبوية الى المدينة في وضع الأسس العامة للدولة ومؤسساتها ، على الرغم من عدم اكتمالها . وذكر المؤرخون بعض الصيغ للعلاقات العامة بين المسلمين من مهاجرين وأنصار من جهة ، وبين اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وأطرافها من جهة أخرى . ووردت معاهدات بين النبي وقريش ، وبينه وبين بعض القبائل العربية ، وإرسال وفود الى الملوك والحُكّام من العرب وغيرهم .

كلُّ ذلك تمخّض عن شبه ديوان لكتابة الرسائل والمواثيق والعهود والإشراف على تنفيذها . وكان يكتب للنبي جمع من الصحابة ، منهم : علي بن أبي طالب (ع) ، وعثمان بن عفان وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت .

ولو بحثنا عن مصادر الرسائل النبوية في التراث لوجدناها متفرقة في كتب التأريخ والسِّيَر والمَغَازي والطبقات ، كالسيرة النبوية لابن إسحاق والتأريخ الكبير لابن جرير الطبري والمغازي للواقدي وفتوح البلدان للبلاذري وطبقات ابن أسعد وغيرها .

والذي ينظر في مجمل الرسائل النبوية يجد أنها تنقسم من حيث الخصائص التاريخية والموضوعية الى دورين :

الدور الأول : في السنين الأولى من هجرة الرسول (ص) الى المدينة ، تمتاز فيها الرسائل بخلوها من التأريخ ، وأغلبها ذات صبغة سياسية تنصب على الارتباط بعهود الدفاع والمناصرة مع القبائل للمسلمين تجاه قريش ، ولذلك نلاحظ خلوها من أية إشارة الى الاسلام أو دعوة إليه الا ما ذكر من كتب بعثها النبي (ص) الى الملوك والأمراء من العرب وغيرهم .

الدور الثاني : في السنين الأخيرة قبيل وفاته (ص) امتازت الرسائل النبوية بالدعوة الى الاسلام وفرض الجزية على مَنْ أبى ذلك وفرض الزكاة على القبائل التي حالفت على الاسلام وإرسال العمال والأمراء على الصدقات .

ونكتفي بدراسة النصوص الآتية وهي بعض كتبه الى الملوك ووثيقة صلح الحديبية وجميعها تمثل وثائق مهمة في التراث سواء من حيث الصفة التأريخية أو من حيث وضع الأسس العامة للكتابة العربية كالافتتاح والبَسْملة وتقديم اسم المُرْسِل على اسم المُرْسَل إليه والخِتام ... الخ .

كتابه (ص) الى النجاشي الأول [٢٥]

نص الرسالة

" من محمد رسول الله الى النَّجاشي عظيم الحبشة ، سلام على من إتّبعَ الهدى أمّا بَعْدُ : فإني أحْمَدُ إليك الله لا إله الا هو المَلِك القُدّوسَ السّلامَ المؤمنَ المهيمنَ ، وأشهد أن عيسى بن مريم رُوحُ الله وكلمته ألقاها الى مريم البَتُول الطّيبة الحَصِيْنَة فحملت بعيسى من روحه ونَفْخه ، كما خلقَ آدمَ بيده ، وإني أدعوك الى الله وحده لا شريكَ له ، والمُولاةِ على طاعته ، وأن تتْبَعني وتُوقن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وإني أدعُوك وجنودك الى الله عزّ و جلّ ، وقد بَلّغْتُ ونصحْتُ فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتّبَعَ الهُدى ".

---

[٢٥] قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط (باب الشين – فصل النون) : ((النجاشيّ – بتشديد الياء ، وبتخفيفها أفصح ، وتُكْسرُ نونها ، أو هو أفصح - : أصحَمة مَلِك الحبشة)) .

تحليل النص

١- تقديم اسم المرسِل على اسم المرسَل إليه .

٢- وصَفَ النبي (ص) نفسه بأنه رسول الله .

٣- استعمل عبارة (عظيم الحبشة) بدل عبارة (ملك الحبشة) .

٤- السلام في بَدْء الرسالة والتخلص الى فحوى الرسالة بعبارة (أمّا بَعْدُ) .

٥- السلام في ختام الرسالة .

الألفاظ

١- وردت في بعض المصادر عبارة (الى النّجاشي الأصْحَمَ) والنجاشي بفتح النون وتخفيف الجيم : هو لقب ملك الحبشة .

٢- القُدّوس : الطاهر المُنَزّه عن العيوب والنقائص . وفُعّول : من أبنية المبالغة .

٣- المؤمن : من أسماء الله الحسنى (كالقدُّوس) وهي بمعنى المُصدِّق ، اي يُصَدِّق ظُنُون عباده المؤمنين ، وقيل : سمي الباري عزّ وجلّ مُؤمِناً لأنه يُؤمِنُ من عذابه مَنْ أطاعه .

٤- المُهيمن : من أسماء الله الحسنى أيضاً ، ويعني : الشاهد ، وهو كقوله تعالى " ومُهيْمناً عليه " أي شاهداً عليه ، لأن الله تعالى شاهد على خَلْقِه .

٥- قوله (ص) " وأشهد أن عيسى بن مريم رُوح الله وكلمته ... الخ " أضاف الروحَ الى الله تعالى ، أي رُوح اختاره الله واصطفاه وخَلَقهُ وأضافه الى نفسه وفضّلَه على جميع الأرواح .

٦- وعيسى كلمة الله : لأنه ولد بكلمة الله من غير والد ، أي بأمْره .

٧- البَتُول : المنقطعة عن الدنيا وزينتها الى الله تعالى ، وهي وصف للنساء دون الرجال .

فائـــــدة

أرسل الرسول (ص) كتباً الى النّجاشي ، وقد وقع الخلاف بين المؤرخين في تعيين شخص النّجاشي وألفاظ الكتب المرسلة إليه ، وأفادنا التحقيق أنّ النّجاشي المكتوب إليه رجلان :

النّجاشي الأول : الذي هاجر اليه المسلمون الهجرة الأولى قبل هجرتهم الى المدينة فأكرمهم وآمنهم ، وتوفي ببلاده قبل فتح مكة (بعد خيبر أو في سنة تسع للهجرة) والرسالة التي سبق أن درسناها هي موجهة إليه .

النّجاشي الثاني : هو الّذي تولى الأمر بعد الأول وخَرَقَ كتاب الرّسول (ص) .

ويتضح مما تقدم أن الرسول (ص) كتب الى النّجاشي الأول يدعوه الى الاسلام في السنة السادسة أو السابعة للهجرة فلبّى طلبه كما ذكر المؤرّخون ، وهو النّجاشي الذي هاجر اليه المسلمون هجرتهم الأولى . وكتب الى النّجاشي الثاني كتاباً يدعوه الى الاسلام فرفض الاستجابة اليه ومزّق كتاب الرسول (ص) وورد نص هذه الرسالة في بعض المصادر على النحو الآتي :

" هذا كتاب من النّبي الى النّجاشي عظيم الحبشة . سلامٌ على من اتّبَع الهدى ، وآمن بالله ورسولِه ، وشَهِد أن لا إله الا الله وَحْدَهُ لا شريك له ، لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله ، فإني رسوله ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ " يا أهل الكتاب تَعَالوا الى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نَعْبُدَ الا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ، ولا يتّخذُ بَعْضُنا بَعْضَاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشْهَدُوا بأنّا مسلمون " فإن أبيتَ فعليك إثم النصارى من قومك " .

والفرق بين الرسالتين من حيث الأسلوب لا يخفى على المتحقق ، ولا سيما أسلوب الوعد والوعيد في الرسالة الثانية ، ففي قوله " وأدعوك بدعاية الله فإنّي رسولهُ فأسلِم

تَسْلَمْ " يتضمن معنى الوعد والوعيد ، وربما كان الوعيد فيه أبْيَن ، وأما في قوله " فإن أبيْتَ فعليك إثم النّصارى من قومك " فالوعيد واضح جليٌّ . وهذا الأمر يرجّح لنا أن الرسالة التي بعثها النبي (ص) الى النّجاشي الثاني كُتِبَتْ وأُرسِلتْ في زمن متأخر بعد السنة السابعة للهجرة ، وربما بعد السنة التاسعة لأن النّجاشي الأول توفي -على رواية الطبري – في السنة التاسعة للهجرة .

كتاب النبي (ص) الى هِرَقْل قيصر الروم

نص الرسالة

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هِرَقْل عظيم الروم . سلام على من اتّبَعَ الهُدى . أمّا بَعْدُ : فإني أدعوك بدعاية الاسلام . فأسْلِم تَسْلَمْ . يُؤتِكَ الله أجرَكَ مرّتَيْنِ . فإن تَولّيتَ فإنّما عليك إثْم الأرَسيّين . و (يا أهل الكتابِ تَعَالَوْا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نَعْبُدُ الا الله ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يتّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرباباً من دُون الله فإن تَولّوا فقولوا أشهَدُوا بأنّا مسلمون) " .

الألفـــاظ

١- هِرَقْل : اسم للقيصر الذي كتب اليه رسول الله . وقَيْصَر : لقب لملوك الروم .
٢- الأرَسيّين : الفلاحون . واحدها أرَسيٌّ – او فرقة من فرق النّصارى .
٣- قوله (ص) يؤتك الله اجرك مرّتين .. الخ أي بإيمانه وإيمان أتباعه لأنه سبَبٌ لإيمانهم ، أو لإيمانه بالمسيح ثم إيمانه بمحمد (ص) كما ورد في الحديث .

تحليل النص

١- ابتدأ الكاتب بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) وهي البسملة التي أصبحت فيما بعد ضرورة في الكُتُب والرسائل .

٢- لم يصف النبي نفسه بأنه رسول الله بل اكتفى بقوله (من محمد بن عبد الله) . ووردت الرسالة في بعض المصادر : من محمد رسول الله و : من محمد عبد الله ورسوله .

٣- استعمال عبارة (سلام على من اتّبع الهدى) وهي العبارة التي أصبحت متبعة في السلام على غير المسلمين .

٤- التخلص الى موضوع الرسالة بكلمة (أمّا بَعْدُ) .

٥- تضمين الرسالة بعض الآيات القرآنية .

٦- استعمال أسلوب الترغيب والترهيب ، فالترهيب في مثل قوله (فأسْلِمْ تَسْلَمْ) والترغيب في مثل قوله (يُؤْتِك الله أجْرَكَ مرّتَيْنِ) .

كتاب النبي (ص) الى المُقُوقِس

نص الرسالة

" بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله الى المُقُوقِس عظيم القِبْط . سلام على مَن اتّبعَ الهدى . أمّا بعد : فإنّي أدعوك بدعاية الاسلام . أسْلِم تَسْلَم . يُؤْتِكَ الله أجرَكَ مرّتَيْن ، فإن تَولّيْتَ فإنّما عليك إثم القِبْط و (يا أهل الكتابِ تِعالَوْا الى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نعْبُدَ إلا الله ولا نُشْرِكَ بِهِ شيْئاً ولا يَتّخذَ بعضُنا بَعْضَاُ أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشْهَدُوا بأنّا مُسْلِمون) .

الألفاظ

١- المُقُوقِس : بضم أوله وثانيه وكسر رابعه : لَقَبٌ لملوك مصر من النّصارى ، كما كان فرعون لقَباً لملوكهم المتقدّمين .

٢- القِبْط والأقباط : المصريون قبل الاسلام ، وبلاد القِبْط هي بلاد مصر .

تحليل النّص : رسالة النبي الى المقوقس تطابق رسالته الى ملك الروم فالعبارات هي نفسها والاستشهاد بالآية نفسها لأن كُلاً من هرقل والمقوقس كانا على دين النصرانية وهم من أهل الكتاب . وابتدأ الكتاب بالبسملة ، وقدم اسم المُرسِل على اسم المُرسَل إليه ، ولم يصف النبي نفسه بأنه رسول الله ، ووردت عبارة (عظيم القبط) بدل (ملك القبط) ، وافتتحت الرسالة بالسلام على غير المسلمين وهو عبارة (سلام على مَنْ اتّبَع الهدى) والتخلص الى فحوى الرسالة بعبارة (أمّا بَعْدُ) وأسلوب الترغيب والترهيب في قوله (يؤتك الله أجرك مرتين) وقوله (فإنّما عليك إثمُ القِبْط) .

كتاب النبي (ص) الى كسرى ملك الفُرْس

نص الرسالة

" بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى كسرى عظيم الفُرْس . سلام على مَنْ اتّبَع الهُدَى ، وآمَنَ بالله ورسولِهِ ، وشَهِدَ أن لا إله الا الله وَحْدَهُ لا شريكَ له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله ، فإنّي أنا رسول الله الى الناس كافة ، (لا نَذَرُ من كان حيّاً ويحقّ القولُ على الكافرين) . أسْلِمْ تَسْلم ، فإن أبيت فعليك إثم المَجُوس " .

الألفاظ

١- كِسْرى : بكسر الكاف وقد تفتح – لقب ملوك الفرس .
٢- قوله (بدعاية الله) أي بدعاء الله ، وهي الدعوة الى الله بالتوحيد والشهادة بأنّه لا إله الا هو .

تحليل النص

١- ابتدأ الرسالة بالبسملة .
٢- تقديم اسم المُرْسِل على اسم المُرْسَل إليه .
٣- وصف النبي نفسه بأنه رسول الله .
٤- وردت عبارة (عظيم الفُرْس) للفرق بين المعنيين ، لأن عبارة (ملك الفرس) تتضمن إقراراً بأنّه ملك ، وعبارة (عظيم فارس) لا تتضمن هذا الإقرار .
٥- قوله (سلام على من اتبع الهدى) : تكتب هذه العبارة لغير المسلم . ويكتب للمسلم : (سلام عليك) .
٦- في الرسالة تصريح بركني الاسلام وهما الشهادتان بأن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله .

٧- أشار في كتابه الى أن دعوته الى الناس كافة وأنه ليس كأنبياء بني إسرائيل مبعوثاً الى قوم دون آخرين .

٨- اسلوب الترهيب في قوله (أسْلِمْ تَسْلَم ... الخ) أي إن أسلمتَ تَسْلَم من الجزية والقتل ومن زوال المُلْك في الدنيا ، وتَسْلم في الآخرة من النار .

وثيقة صلح الحُدَيْبيَة بين المسلمين وقريش

نص الوثيقة

" باسْمِكَ اللّهُمَّ . اللّهُمَّ هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله والملأُ من قريش وسُهَيْل بن عمرو . واصطلحوا على وَضْع الحرب بينهم عَشْرَ سِنين : على أن يَكُفَّ بَعْضٌ عن بَعْضٍ ، وعلى أنه لا إسلال ولا إغلال ، وأن بيننا وبينهم عَيْبَةٌ مكفوفة ، وأنه من أحَبَّ أن يدخل في عهد محمد وَعَقْده فَعلَ ، وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عهْد قريش وعَقْدها فعل ، وأنّه مَنْ أتى من قريش الى أصحاب محمد بغير إذن ولِيّه يَردّهُ اليه ، وأنه مَنْ أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يَردّوه إليه ، وأن يكون الاسلام ظاهراً بمكة ، لا يُكْره أحدٌ على دينه ، ولا يُؤذّى ولا يُعيّر ، وأن محمداً يرجعُ عنهم عامة هذا وأصحابَه ، ثم يدخل علينا في العام القابل مكة فيقيم فيها ثلاثة أيام ، ولا يدخل عليها بسلاحٍ إلا سلاح المُسافِر : السيوف في القِراب .

وكتب : علي بن أبي طالب وشَهِدَ على الكتاب المهاجرون والأنصار " .

الألفاظ

العَيْبَة : الحقيبة ، والعَيبَة المكفوفة كناية عن الذّمة التي لا تُنْكث .

لا إسلال : لا سَرِقة .

لا إغلال : لا خيانة .

تحليل النص

١- النص خال من التزويق اللفظي والاستفاضة في الكلام . يمتاز بالوضوح والاختصار والمباشرة في إيراد بنود المصالحة المتفق عليها بين الطرفين .

٢- افتتح الكتاب بعبارة (باسمك اللهم) بدل (بسم الله الرحمن الرحيم) والعبارة الأولى هي المألوفة عند العرب قبل الاسلام .

٣- الاقتصار على عبارة (محمد بن عبد الله) دون وصفه (برسول الله) ما يظهر بوضوح أن العقد المتفق عليه بين الطرفين خالٍ من الصفة الدينية .

٤- (محمد بن عبد الله) هو الطرف الأول في العقد ،واقتصر على اسم الرسول الكريم دلالة على عامة المسلمين . و (الملأ من قريش وسهيل بن عمرو) : الطرف الثاني في العقد ، ويكون سهيل – بذلك – ممثلاً لقريش وحلفائها من المشركين وتقديم الطرف الأول على الطرف الثاني في العقد دليل على أن الطرف الثاني هو الذي طلب الصلح . ويتضمن – كذلك – ضعف الطرف الثاني تجاه الطرف الأول .

٥- شروط الصلح التي اتفق عليها الطرفان :

أ- أنْ يضعوا الحرب بينهم عشر سنين (وقيل أربع سنين وقيل سنتان ، الأول أثبت) .

ب-ولا خيانة بينهم ، فلا يخون بعضهم بعضاً .

ت-ولا سرقة : فيأمنوا على أموالهم في تلك المدة ، أو لا يَغِيرُ أحدُ المتعاقدين على الآخر .

ث-ومن أحَبَّ أن يدخل في عَقْد محمد وعَهْده فعل .

ج- ومن أحبَّ أنْ يدخلَ في عَقْد قريش وعهدها فعل .

ح- ومَنْ أتى قريشاً من المسلمين لا يردوه الى المسلمين .

خ- ومن أتى من قريش الى المسلمين بغير إذْن وليّه يردّوه اليه (ويفهم من هذا النص – ضمناً – أن من أتى من قريش مُسْلماً بإذنِ وليّه لا يُردّ الى قريش).

د- وأن يكون الاسلام ظاهراً بمكة لا يُكْره أحَدٌ على دينه ولا يُؤذى ولا يُعَيّر .

ذ- وأن يرجع محمد عنهم عامة هذا ويدخل عليهم في العام القابل ثلاثة أيام من دون سلاح الا السيوف في القراب .

ر- ورد في آخر الكتاب اسم الكاتب ، وأُشير الى الشهود عليه في العبارات الآتية : (وكتب علي بن أبي طالب وشَهِدَ على الكِتاب المهاجرون والأنصار).

وأصبح اسم الكاتب والشهود من التقاليد المتبعة في صياغة العقود والمواثيق والمعاهدات في تأريخ الكتابة العربية وفي موارد كثيرة مشابهة حصلت للخلفاء في عصور الراشدين والأمويين والعباسيين .

عبد الحميد الكاتب وأسلوب التوازن

التوازن في النثر هو تعادل الفِقْرات في الكلام وعدم التقيد بالَّسجْع . ولهذا الاسلوب خصائص ذكرها البلاغيون ، ومنها :

١- أن تكون الفواصل على زنة واحدة كقول بعضهم " إصْبِر على حرِّ اللِّقاء ، وَمَضَضِ النِّزال ، وشدَّة المِصاع (المُجالَدة) ، ومُداومة المِراس " .

٢- أن تكون العبارات قصيرة متساوية تقريباً .

وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب من أوائل الكُتّاب الّذين التزموا بهذا المنحى من النثر وربما كان من أوائل الذين وُفّقوا لتطوير الكتابة العربية الديوانية عموماً وبه يبدأ عصر جديد ومرحلة مهمة في تأريخ كُتّاب الدواوين .

كتب عبد الحميد لعدد من خلفاء بني أُميّة إذ كان كاتباً لعبد الملك بن مروان ثم لابنه يزيد بن عبد الملك . وبقي كذلك الى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية . ولمعاصرته هذا العدد من الخلفاء تبوّأ مركزاً خطيراً في دولتهم يضاف الى ما إمتاز به من فنون البلاغة التي مكنته من تطوير النثر واستحداث بعض الأمور التي أصبحت فيما بعد من التقاليد المتبعة عند الكُتّاب . وبلغ فضله ومنزلته في هذا الميدان حتى قيل عنه " فُتِحَت الرسائل بعبد الحميد وخُتِمَت بابن العميد " وقال عنه ابن النديم في كتاب الفهرست " عنه أخذَ المُترَسّلون ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في التَرَسُّل " وقال عنه المسعودي (مروج الذهب) ذاكراً ما استحدثه من فنون في الكتابة " صاحب الرسائل والبلاغات وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده)) .

اسلوبه وخصائصه الفنية في الكتابة

اتّصف اسلوب عبد الحميد في الكتابة بجملة من الخصائص لعل من أبرزها:

١- الإطالة في رسائله .

٢- استخدام الحال استخداماً مسْرِفاً .

٣- اعتمد عبد الحميد في كتابه على ما يمكن أن نسمّيه (الترادف الموسيقي) بين العبارات بمعنى ان الفكرة الواحدة تؤَدّى بعبارتين أو أكثر تتعادل فيما بينها لتؤدي الى نوع من الإيقاع الصوتي . ونلاحظ ذلك في رسالة بعث بها الى أهله يعزيهم عن نفسه . قال " أمّا بَعْدُ فإن الله جَعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسّرُور وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درّتْ له بحلاوتها وساعده الحَظُّ فيها سكن إليها ، ورَضيَ بها ، وأقام عليها ، ومَنْ قَرَصتْه بأظفارها ، وعَضّتْه بأنيابها ، وتوَطّأته بِثقلها ، قلاها نافراً عنها ، وذمّها ساخطاً عليها وشكاها مستزيداً منها)) .

وتُعَد رسالته الى الكُتّاب من أشهر رسائله ، فهي كالدستور يبين فيها ما يجب على الكُتّاب معرفته وما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم في علاقاتهم المختلفة مع الناس .

وهذه الرسالة من الوثائق المهمة في تأريخ الكتابة العربية لأنها تشتمل على أسس للكتابة أصبحت فيما بعد من التقاليد المتبعة لدى الكُتّاب ـ وقد ذكر فيها عبد الحميد ما يأتي :

١- ما يجب على الكاتب أن يُتْقنه من صنُوف العلم والثقافة .

٢- ما ينبغي أن يأخذ به الكاتب نفسه في سياسة الناس وتدبير شؤونهم .

٣- مجموعة من الوصايا الخُلُقية والسياسية يجب أنْ يأخذ بها الكُتّاب في معاملتهم مع الخلفاء .

٤- حاول عبد الحميد في رسالته أن يحث الكُتّاب على تكوين مجموعة أو رابطة مهنية فيما بينهم تعالج مشاكلهم المختلفة .

ويمكن من خلال دراسة بعض النصوص الواردة في هذه الرسالة أن نطّلع على موضوعاتها وما عالجه عبد الحميد من مشاكل يتعرّض لها الكُتّاب .

في مطلع الرسالة بين عبد الحميد منزلة الكُتّاب وأهمية صناعتهم في تدبير المُلْك والسياسة . قال " أمّا بَعْدُ ، حفظكم الله يا أهل الصناعة ، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ، فإن الله عزّ وجَل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المُكْرمين – سُوَقاً [أصنافاً] ، وصرفهم في صنوف الصناعات [الصَّنْعة = المِهْنة] التي سبّب منها معاشهم ، فجعلكم معْشرَ الكُتّاب في أشرفها صناعةً ، أهل الأدب والمروءة والحِلْم والرويّة وذوي الأخطار والهمم وسَعَة الذّرْع في الأفضال والصِّلة ، بكم يُنْتَظم المُلك ، وتستقيم للملوك أمورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يُصْلِحُ الله سُلْطانَهُم وتَعْمر بلادهم . يحتاج اليكم المَلِكُ في عظيم مُلْكِهِ والوالي في القَدْر والسّنِيّ والدّنيّ من ولايته ولا يستغني عنكم منهم أحد .. "

وينبغي لمن يزاول هذه المهنة أي الكتابة أن يتخلّق بجملة من الصفات كالحِلْم والعَدْل والعَفاف وأن يثق به الناسُ وما سوى ذلك من الصّفات التي ذكرها في قوله (.. فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره الى أن يكون حليماً في موضع الحِلْم ، فقيهاً في موضع الحُكْم ، مقداماً في موضع الإقدام ، ومُحْجِماً في موضع الإحجام ، ليّناً في موضع اللّين ، شديداً في موضع الشدّة ، مؤْثِراً للعفاف والعَدْل والإنصاف ، كَتُوماً للأسرار ، وفيّاً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي ويَذَر ، ويضع الأمور في مواضعها .. "

وعلى الكاتب ان يجمع بين صنوف العلم والثقافة بما يدخل ضمن عمله مباشرة كتعلم النحو واللغة وإجادة الخطّ ومعرفة الحساب وبخاصة كُتّاب الخَرَاج ، أو بما يزيد

من معرفته ويوسعها كرواية الأشعار ومعرفة التأريخ وأيام العرب والأمم الأخرى . قال عبد الحميد مخاطباً الكُتّاب " تنافسوا معشر الكُتّاب في صنوف العلم والأدب وتفقهوا في الدين وأبدعوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ ، والفرائض ثم العربية فإنّها ثِقافُ ألسِنَتكم ، وأجيدوا الخَطّ فإنّهُ حِلْية كُتُبِكم ، وأرووا الأشعار وأعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسِيرها ، فإن ذلك معينٌ لكم على ما تَسْمون إليه . ولا يَضْعُفَنَّ نَظَركم في الحساب ، فإنّه قِوامُ كُتّاب الخَراج منكم ... " .

وفي نهاية الرسالة أوصى عبد الحميد الكُتّاب بعضهُم ببعض خيراً وحثّهُم على التعاون والمواساة حين يتعرض أحدهم لضرر في المال أو في النفس ودعاهم الى تأليف ما يمكن أن نسمّيه رابطة مِهْنية تحفظ لأصحاب هذه المهنة مكاسبها وتدعوهم الى التعاون والمؤاخاة . قال " وإن نبا الزمان برجلٍ منكم فأعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حالُه ، وإنْ أقعَد الكِبَرُ أحَدكم عن مكسبه ولِقاء إخوانه فزوروه وعظّموه وشاوروه .. "

عبد الله بن المُقَفّع

يمثل لنا عبد الله بن المُقَفّع إتجاهاً جديداً في تأريخ الكتابة العربية يتلخص في أن الكتابة في أوائل القرن الثاني الهجري قد مرّت بتطور ثقافي عكستها جميع الجوانب الحضارية في تلك الفترة . وأصبح الكاتب على معرفة بالثقافات المختلفة والثقافات التقليدية التي ينبغي أن يلم بها كعلوم اللغة والتأريخ . لذلك أصبحنا نشاهد مثلاً أثر المنطق والفلسفة والفلك والعلوم الصرفة في إنتاجه .

وتحدثنا كتب التأريخ والتراجم عن عبد الله بن المقفع وتذكر أن أباه لُقّبَ بالمُقَفّع لأنه التحق بديوان الخراج في البصرة وذلك في عهد الحجاج فاختلس مالاً فضربه الحجاج على يده حتى تَفَقّعت أي يبست فلقِّب بالمقفّع ولقّب ابنه عبد الله بابن المُقَفّع . وتولى ابن المقفع الكتابة في الدولة الأموية لعمر بن هُبيْرة ثم كتب لابنه يزيد حين وليَ العراق من قبل مروان بن محمد وكتب لأخيه داود . وبعد قيام الدولة العباسية كتب لعيسى بن علي عم المنصور وبقي كذلك الى أن قُتِل على يد سفيان بن معاوية والي البصرة للمنصور . وذكر ابن خلكان أن ذلك حدث في عام ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ هـ .

ويتّصف أسلوب ابن المقفع بالبساطة والتركيز والوضوح والاختصار دون الإخلال بالمعنى . ولخص لنا شوقي ضيف هذا الأسلوب قائلاً " وهو أسلوب واضح شفّاف ، ليس فيه تعقيد ولا إغراب وإنما فيه الاسترسال العذب والعبارات المبسّطة حسب الأغراض والمعاني التي كان ينقلها ، وكان ينفرُ نفوراً شديداً من الإغراب في اللفظ والتوعّر فيه " كان يقول لبعض مَنْ حوله : إيّاك والتتّبع لوَحشِيّ الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العِيّ الأكبر . وكان يقول : عليك بما سهُلَ من الألفاظ مع التجنّب لألفاظ السّفْلة . وَسُئل ما البلاغة ؟ فقال : التي إذا سمعها الجاهل ظنّ بأنّهُ يُحْسنُ مِثلَها.

وفيما يأتي أهم الخصائص الفنية لأسلوب ابن المقفع في الكتابة :

١- التوسط بين لغة الخاصة ولغة العامة وهو ما عرف بالأسلوب العباسي المُولّد . وقوامه عند ابن المقفع هو الملاءمة بين حاجات عصره الثقافية وبين مقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية)) .

٢- جنح في أسلوبه الى السهولة والوضوح والجَزالة في اللفظ مع الإيجاز بحيث تؤدى المعاني بأقل الألفاظ .

٣- عدل ابن المقفع عن اسلوب السجع والترادف الصوتي الذي سبق أن لاحظناه عند عبد الحميد .

٤- استعمل ابن المقفع ألفاظا في تعبيره وقد يعمد أحياناً الى استعمال ألفاظ فنية كاستعماله كلمة (شبه) بمعنى التبس واختلط ، وكلمة (مِرْية) بمعنى شك وريبة ، وكلمة (خافر) بمعنى ناقض العهد .

٥- اتّصَفَ اسلوب ابن المقفع باستعمال الجملة الطويلة ما يؤدي أحياناً الى شيء من الغموض في التعبير .

٦- برع ابن المقفع في التصرف بأحرف الجر الكثيرة وبالأسماء الموصولة .

٧- إمتاز أسلوبه عموماً بخلوه من الصنعة اللفظية إلاّ ما وقع منه عفواً دون قصد وفي مواقف التهكُّم .

كتبه ورسائله

ترك لنا عبد الله بن المقفع كُتُباً ورسائل . بعضها مؤلف وبعضها الآخر مترجم . وأشهر مؤلفاته : كتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب الصغير . وأشهر مترجماته كتاب كليلة ودِمنة . ونقتصر في دراستنا على هذه الكتب المذكورة .

كَليلة ودِمْنَة

كتاب وضعه بِيدَيا وهو حكيم وفيلسوف هندي لَدَبْشَلِيم الملك . ثم ترجم الى بعض اللغات . وقد قام ابن المقفع بترجمته الى العربية بأسلوب يظن القارئ بأنه من تأليفه إذ دلّ على براعة الترجمة مع الاحتفاظ بروح النص .

يتألف كتاب كليلة ودمنة من أربع مقدمات وخمسة عشر باباً تدور حول أسئلة يلقيها دبْشليم على بيديا . ويجيب بيديا على أسئلة الملك ويبين مغزاها ثم يضرب لها الأمثلة من قصص وحكايات تتعلق معظمها بالحيوان كالأسد والثور وابن عِرْس والغراب واللقلق وغيرها .

من مقدمة كتاب كليلة ودمنة وفيه وصف للكتاب والغرض من وَضْعه :

" هذا كتاب كَلِيْلَة و دِمْنة . وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي أُلْهموا أن يُدخِلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا . ولم يزل العلماء من كل أُمّة ولسان يلتمسون أن يُعْقِل عنهم ، ويحتالون لذلك بصُنوف الحِيَل ، ويبتغون لإخراج ما عندهم من العِلل في إظهارهم ما لديهم من العلوم والحِكَم ، حتى كان من تلك العلل وَضْع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطّيْر ، فاجتمع لهم بذلك خِلال [صفات] . أمّا هم فوجدوا مُنْصَرفاً في القول وشِعاباً يأخذون منها ، ووجوها يسلكون فيها " .

وقال في موضع آخر " فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أنْ يعرف الوجوه التي وُضِعتْ له والرموز التي رُمِزتْ فيه ، والى أي غاية جرى مؤلّفه فيه عندما نسبه الى البهائم وأضافة الى غيْر مُفْصح وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالاً . فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يَدْرِ ما أُريد بتلك المعاني ولا أيّ ثَمَرَة يجْني منها ولا أيَّ نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمّنه هذا الكتاب . وأنه إن كانت غايته من استتْمام قراءته والبلوغ الى آخره دون تفهّم ما يقرأ منه لم يَعْدُ عليه شيءٌ يَرْجع إليه نَفسُه .. " .

الأدب الكبير والأدب الصغير

وهما كتابان في الحكمة والأدب بالمعنى الأخلاقي لهذه الكلمة . ويبدأ كتاب الأدب الكبير بذكر مطلبين أولهما : في فضل الأقدمين ، وثانيهما في الحث على تعرف العلم وأصوله . ويشتمل الكتاب أيضاً على مقالتين : الأولى في آداب السلطان وصُحْبته . والثانية في الأصدقاء ومعاملتهم وفي آداب الناس عامة .

أما كتاب الأدب الصغير فهو رسالة في الآداب والأخلاق تشتمل على المعاشرة والأصدقاء وتتكلم على الأخلاق الفاضلة وثمرتها ، والرذائل وعواقبها . وتناول فيه أيضاً ما يجب على الوالي والعالِم وفضل الاستشارة وذم الجهل وفضل المال ووصف معاملة الناس للغنيّ والفقير . وتناول في كتابه ايضاً ذم الفخر والحسد والغضب ، وذكر فيه حاجة العقل الى الأدب وتأثير هذا الأدب في إنماء العقل .وكان يرى أن الأدب هو العِلْم الذي يصل بالانسان الى حسن الخُلُق ورقّة الشمائل وحلو الصّفات .

نصوص من الأدب الكبير

نص في فضل الأقدمين :

" إنّا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً وأوفرَ مع أجسامهم أحلاماً وأشدَّ قُوّةً وأحسنَ بقوّتهم للأمورِ إتقاناً ، وأطولَ أعماراً وأفضلَ بأعمارهم للأشياء اخْتباراً . فكان صاحب الدين منهم أبْلغَ في أمر الدّين علماً وعَمَلاً من صاحب الدين منّا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفَضْل .

وجَدْناهم لم يَرْضوا بما فازوا به من الفَضْل الّذي قُسِمَ لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكُتُب الباقية وضربوا الأمثال الشافية

وكَفَوْنا به مؤُونة التجارب والفِطَن . وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يُفْتَح له البابُ من العلم أو الكلمة من الصواب – وهو في البلد غير المأهول – فيكتبه على الصخور مُبادَرَةً للأَجَل وكراهية منه أن يَسْقطَ ذلك عَمّن بعده . فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشَّفيق على ولده الرحيم البَرّ بهم الذي يجمع لهم الأموال والعَقْد إرادةً أن لا تكون عليهم مَؤُونة في الطلب وخشيةَ عجْزهم إن هم طلبوا . فمنتهى عِلْم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من عِلْمهم ، وغاية احسان محْسننا أن يقْتديَ بسيرتهم .. " .

الألفاظ

أوفر ، أكمل ، الأحلام : جَمْع حلم وهو العقل . أبلغ : أكثر إدراكاً . قُسِم لأنفسهم :أُعطِي لهم . كَفَوْنا : حملوا عنّا . مؤونة التجارب : تَعْبُها ومَشَقّتها . الفِطْن : جمع فطنة وهي التفكير والبحث . مبادرة للأجل : خوفاً من الموت . يسقط : يضيع . صَنيعَهم : عَمَلهم . العَقْد : العِقار والضِّياع .

تحليل النص

١- النص في بيان فضل الأقدمين في العلم والمعرفة .

٢- يصف الأقدمين بأنهم أكثر علماً وخبرة في الأمور من المُحْدثين وبلغ شغفهم بالعلم حداً كانوا لا يتركون منه شيئاً الا كتبوه ولو عُدِموا ما يكتبون فيه لدوّنوا العِلْم وحفروه في الصخور .

٣- بين في الفقرات الأخيرة من هذا النص أنّ أكثر ما يرجوه العالم في زمانه ونهاية ما يسعى اليه هو أنْ يقتدي بالأقدمين .

في آداب المجالسة ومعاشرة الأصدقاء

" لا تُجالسنَّ امرءاً بغير طريقته . فإنّك إنْ أرَدْت لقاء الجاهل بالعِلْم ، والجافي بالفقه والعَيِيّ بالبيان لم تَرْد أنْ تُضيعَ عِلمك وتُؤذي جليسك بحَمْلك عليه ثِقْل ما لا يعرف وتُحمّل إيّاه بمثل ما يَغتُّم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمي الذي لا يفقه عنه .

واعلمْ أنّه ليسَ من عِلْم تذكُرهُ عند غير أهله الا عابوه ونَصَبوا له ونَقَضُوه عليك ، وحرصوا على أن يَجْعلوهُ جَهْلاً ، حتى أنّ كثيراً من اللّهو واللّعب الذي هو أخَفّ الأشياء على الناس لَيَحْضره مَنْ لا يعرفه فيَثْقُل عليه ويغتمَّ به .

وَلْيَعْلم صاحبك أنّك تُشْفق عليه وعلى أصحابه . وإيّاك إن عاشرك امروٌ أو رافقك أنْ يرى منك الوُلوع بأحدٍ من أصحابه واخوانه وأخدانه . فإنّ ذلك يأخذُ من أعنّة القلوب مَأْخذاً . وإنّ لُطْفك بصاحب صاحبك أحسنُ عنده موقِعَاً من لُطْفك به في نفسه . واتّقِ الفرح عند المحزون . واعْلَمْ أنّهُ يَحْقدُ على المُنْطلِق ويَشْكُر للمُكْتئِب " .

<u>التحليل</u>

١- جالس الناس واختلط بهم كُلاًّ على طريقته لأنك لو اردت لقاء الجاهل والتحدث إليه في شؤون العلم والمعرفة ضيّعتَ علمك وأثقلتَ على جليسك ما يُؤدي الى التباغض والنفور بينكما . وهذا الرأي يذكرنا بالحديث "كلّموا الناس على قَدْر عقولهم " .

٢- لا تذكر العِلْم الا عند أهلِه لأن من جهل شيئاً عاب عليك علمك ومعرفتك بذلك الشيء .

٣- أشْفِقْ على صديقك وعلى أصحابه بمثل ما تُشْفق عليه . وايّاك أن تشعر صديقك بأنّك تحب صاحبه أكثر منه لأن ذلك يورث البغضاء في القلوب . وإيّاك أنْ تُبْدي السرور والفرح عند المحزون .

نصوص من الأدب الصغير

نص في بيان فضْل الحِفْظ والتبصّر في الأمور وأهمية الأدب وتحصيله في نماء العقل :

" وأما الحِفْظ والتعَهّد فهو تمام الدَّرَك لأن الانسان موكّلٌ به النسيانُ والغفلة فلابُدّ به اذا اجتبى صواب قولٍ أو فعلٍ من أن يَحْفَظْه عليه ذهنُهُ لأوان حاجته .

وأما البصر بالموضِع فإنما تصير المنافع كُلُّها الى وضع الأشياء مواضعها ، وبنا الى هذا كُلّه حاجةٌ شديدة . فإنّا لم نوضَعْ في الدنيا موضع غِنىً وخَفْضٍ ولكن بموضع فاقةٍ وكَدٍّ . ولَسْنا الى ما يمسِك أرماقنا من المأكل والمشْرب بأحوج منّا الى ما يُثَبّت عُقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول . وليس غذاءُ الطعامِ بأسْرع من نباتِ الجسد من غذاء الأدب في نبات العَقْل . ولسْنا بالكَدِّ في طَلَب المَتاع الذي يُلْتَمسُ به دَفْع الضَّرر والغَلَبة بأحقّ منّا بالكَدِّ في طلب العلم الّذي يُلْتَمسُ به صَلاحُ الّدين والدنيا " .

الألفاظ

الدَّرَك : الإدراك والوصول الى ما يريده الانسان . اجتبى : اختار . خَفْض : سعة في الثروة والعيش . فاقة : فَقْر . كَدٌّ : تعب وَمَشقَّة .

التحليل

١- النص في بيان فضل العلم وحفظه ودفع الغفلة والنسيان والتبصر في إدراك الأمور ومنافعها وأهمية الأدب في نمو العقل وازدياد المعرفة .

٢- استعمل ابن المقفع الألفاظ الواضحة والموجزة المعبرة عن المعنى من دون اختصار يُخِلّ به مع الاحتفاظ بالمباشرة في بيان أفكاره وآرائه .

٣- يرى ابن المقفع أن الإدراك لا يوصل الى ما يريده الانسان إلاّ بالحفظ أي حفظ الأشياء لأن آفة العلم النسيان كما قالوا في المثل وتتمثل الحاجة الى حفظ الأشياء في الذّهن حينما يريد الانسان أن يهتدي الى الصواب في قول يقوله أو فعل يفعله.

٤- والتبصر في الأمور وهو من البصيرة أي العقل والتدبير ضرورية مهمة في تأمين المنافع للانسان وتجنيبه الأضرار لأنّا خُلقنا في هذه الدنيا – كما يقول ابن المقفع – في موضع فاقة وكَدٍّ وليس في موضع غِنىً وَخَفْض ، أي خلقنا ونحن نفتقر الى سعة العيش والنعمة ، ويبدو أن التعبير كان عن نفسه أو عن الغالبية الذين عاصرهم فقد كانوا في أول أمرهم قليلي الحظ من الغنى .

٥- أكد ابن المقفع أهمية الأدب في إنماء العقل لدى الانسان فهو يرى أن الأدب يغذي العقل أكثر مما يغذي الطعامُ والشرابُ الجسدَ . ويلخص رأيه في العبارات الآتية : وليس غذاء الطعام بأسرَع في نبات الجَسَد من غذاء الأدب في نبات العقل .

الجاحـــــــظ

شاع في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني أسلوب إنشائي عرف خصوصاً في الكتب والرسائل الأدبية ، هذا الأسلوب هو التوازن او النثر المتوازن ويقصد به التوازن بين العبارات في الجمل من الناحية الكمية دون الالتزام بالسجع أي أن تكون العبارة على قدر العبارة السابقة عليها كقول الجاحظ مثلاً في كلامه على واصل بن عطاء وما كانت تظهر منه عيوب نطقية كاللُّثْغة العارضة للسان " ولولا استفاضة هذا الخبر . وظهور هذا الحال . حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته مَعْلَماً ، لما استجزنا الإقرار به . والتأكيد له " فأنت تلاحظ أن العبارات في الجمل المتقدمة تكون متوازنة مع بعضها . لا تطول إحداها على الأخرى طُولاً كبيراً ، ولا تنقص نُقْصاناً كثيراً مما يخل بالجمل .

واشتهر بهذا الأسلوب اثنان من كبار الكُتّاب في التراث هما : عبد الحميد الكاتب والجاحظ . ولا يعني ذلك أن أسلوب التوازن لم يكن معروفاً قبلهم ولكنهم أكثروا منه ونهجوا عليه حتى صار معروفاً بهم .

ونتناول في درسنا هذا الجاحظ ، ونحاول التعريف به تعريفاً موجزاً ثم دراسة بعض النصوص المقتبسة من كتبه وتحليلها .

ولد ابو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ في البصرة أول سنة ١٥٠ هـ وقيل في سنة ١٦٠ هـ وتوفي سنة ٢٥٥ هـ في خلافة المعتز وقد جاوز التسعين من عمره . لُقّب بالجاحظ لجحوظ في عينيه وهو نتوء أو بروز في حدقتها . كان محباً للكتب كثير المطالعة حتى قيل عنه " أنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر " وكان الجاحظ في أول أمره ضيّق الرزق يبيع الخبز والسمك بسيحان (نهر بالبصرة) ثم انتقل من البصرة الى بغداد سنة ٢٠٤ هـ في خلافة المأمون واتصل بوزير المعتصم محمد بن عبد الملك الزيّات فذاع صيته وأصبح من الأغنياء المُوسَرين . وعمل في ديوان الرسائل مع ابراهيم

بن العباس الصّولي أيام المأمون ولكنه اعتزل العمل وانصرف الى المطالعة والتأليف . زار الجاحظ سامَرّا ودمشق وأنطاكية ثم عاد الى البصرة وبقي فيها الى أن توفي .

وبلغت شهرته في فنون العلم والأدب المعروفة في زمانه مَبْلغاً عظيماً حتى قال ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء يصفه " كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحِفْظ بحيث شاع ذِكْره وعَلا قَدْره واستغنى عن الوصف " .

مصادره العلمية

استقى الجاحظ مصادره العلمية من كتب كثيرة . وسمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وهم أشهر علماء اللغة في القرن الثاني الهجري . وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن . وكان الجاحظ معتزلياً وغلب في عصره الجدل العلمي بين المعتزلة والأشعرية في موضوع القَدَر فعل الانسان مُخيّر في أفعاله أو مُسيّر ، وفي موضوعات اخرى . وشهد القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجري خِصْباً فكريّاً وثقافياً ما أغنى الفلسفة الاسلامية فيما بعد ونشأ ما يسمى بعلم الكلام (وهو العلم الذي يدافع به أصحابه عن العقيدة الاسلامية ويردّون به شُبُهات المشككين) وترأس المعتزلة في هذه الفترة إثنان من كبار شيوخها أحدهما واصل بن عطاء وكانت للجاحظ صحبة معه والآخر النظّام وقد أخذ عنه الجاحظ علم الكلام .

واشتهرت البصرة في عصره بأنها ملتقى الفِكْر والأدب ولا سيما سوقها المعروف بالمِرْبَد وكان على غرار سوق عُكَاظ في الجاهلية حيث يجتمع في الشعراء والأدباء والعلماء وأصحاب اللغة والنّحو يُنْشدون ويتناظرون في مسائل كثيرة فتلقف الجاحظ الفصاحة من العرب شِفاهاً في سوق المربد .

مؤلفاته

ذكر ياقوت فهرساً لمؤلفات الجاحظ في معجم الأدباء منها كتب كبيرة ورسائل صغيرة في موضوعات مختلفة . وقد أحصى له ما يقرب من مائة مؤلّف أشهرها ثلاثة كتب وهي كتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء ، والبيان والتبيين :

١- كتاب الحيوان : طبع في عدة أجزاء وهو أكبر كتبه حجماً . جمع فيه الجاحظ المفيد والطريف من الأخبار مما تعلق بالحيوان أو غيره . والكتاب جامع للكلام على أنواع الحيوان وأجناسه وأعضائه وأحواله وطرائق حياته وفي أثناء كلامه يستطرد الجاحظ كثيراً الى ذكر القصص المتعلقة بالحيوان والى شيء كثير من الشعر ومن أخبار الأدب ومن الكلام على الحياة الاجتماعية في ذلك العصر .

٢- كتاب البخلاء : جمع فيه الجاحظ قصصاً عن البخل والبخلاء . وقصد فيه تصوير طبائع الناس في مسألة أخلاقية هي البخل واتبع في وصفه الأسلوب الساخر وكثيراً ما يستطرد الى وصف دقائق الأمور مما يتعلق بالبخلاء كوصف أجسامهم وملابسهم وما يستعملونه من أدوات . ويصف أيضاً حيلهم في دفع الضيوف واستحواذهم على الأكل حين يُدْعون الى وليمة .

٣- البيان والتبيين : ألّفه في أواخر عمره بعد تصنيف كتاب الحيوان . وكان غرضه من تأليف الكتاب هو الدفاع عن البيان العربي وتحدّث فيه عن الألفاظ والتراكيب ولهجات العرب عند البَدْو والحَضَر ثم تكلم على الشعراء والخطباء والنُّسّاك والمعتزلة وغيرهم مع ذكر كثير من النصوص الشعرية والنثرية .

منهجه في البلاغة والبيان

الجاحظ من الّذين أعطوا للألفاظ أهمية كبيرة فهو يرى أن حقيقة البيان الكشف عن المعنى بألفاظ تؤدي الى الفهم والإفهام . إن المعاني كثيرة متشعبة لكنها مستورة في الصدور وإنّما الفضل في الدلالة عليها باللفظ الحَسَن .

ويمكن تلخيص منهجه في البلاغة في ثلاثة أمور :

١- مطابقة العبارة لمقتضى الحال : ويقصد بها أن تكون العبارة متسقة مع الغرض الذي قيل فيه الكلام . قال الجاحظ " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدارَ المعاني ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يُقسّمَ أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويُقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المُسْتمعين على أقدار تلك الحالات .

٢- البيان أو وضح الدلالة : قال الجاحظ " قال بعض جَهَابذة الألفاظ ونُقّاد المعاني : المعاني القائمة في صدور العباد المَقْصُورة في أذهانهم والمتخلّجَة في نفوسهم والمُتّصلة بخواطرهم والحادثة عن فِكَرِهم . مستورةٌ خفيّة ، وبعيدة وحشيّة ، ومحجوبَةٌ مكْنونة وموجودة في معنىً مَعْدومة ، لا يعرفُ الانسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخَليطه ، ولا معنى شريكه والمُعَاون على أُمُوره وعلى ما يبْلُغُه من حاجات نفسه إلا بِغَيْره . وإنما تحيا تلك المعاني في ذِكْرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إيّاها . وهذه الخصال هي التي تُقرّبها من الفَهْم وتُجلّيها للعقل وتجعل الخَفِيّ منها ظاهراً والغائبَ شاهداً والبعيد قريباً .

٣- الإيجاز وعدم التكلّف : قال الجاحظ " وأحسنُ الكلام ما كان قليلُهُ يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لَفْظه . وقال في موضع آخر " فإذا كان المعنى شريفاً واللفظُ بليغاً وكان صحيح الطّبْع بعيداً عن الاستكراه ومنَزّهاً عن الاختلال ، مَصُوناً من التكلّف صَنَع في القلب صَنِيعَ الغَيْث في التُرْبَة الكريمة .

نصوص من كتاب البيان والتبيين

نص في معنى البيان وأصناف الدلالات على المعاني :

" والبيان اسم جامع لكل شيءٍ كَشَف لك قناع المعنى وهَتَك الحجاب دون الضمير ، حتى يُفْضي السامع الى حقيقته ويَهْجم على مَحْصوله كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنسٍ كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائلُ والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام ، فبأيّ شيءٍ بَلَغْت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع . ثم اعلم – حَفِظك الله – أن حكم المعاني خِلافُ حُكْم الألفاظ ، لأن المعاني مبسوطةٌ الى غير غاية ، ومُمتدةٌ الى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصّلة محدودة وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تَنْقص ولا تَزِيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العَقْد ، ثم الخَطّ ، ثم الحالُ التي تسمى نِصْبة ، والنِّصْبة هي الحال الدالة ، التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تَقْصر على تلك الدلالات ، ولكل واحدٍ من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها ، وحِلْية مخالفة لِحِلْية أُخْتها ، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ، ثم عن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصّها وعامّها ، وعن طبقاتها في السّارّ والضّارّ ، وعمّا يكون منها لَغْواً بَهْرَجاً وساقِطاً مُطّرحاً .. " .

الألفاظ

يُفضي السامع الى حقيقته : اي يصل الى حقيقته .

مبسوطة : مُمْتدّة

أسماء المعاني : الألفاظ الدالة على المعاني كقولك : رجل وامرأة وكتاب وشجرة .

بائنة : مختلفة .

الحِلْيَة : الّزينة .

البَهْرج : الزّيْف ، ومنه قولهم : دِرْهم بَهْرج : أي زَيْفٌ .

لَغْواً : كلام لا فائدة منه ، واللغو والبهرج والساقط المُطّرح من الكلام : الذي لا فائدة منه .

تحليل النص

١- الغرض من النص توضيح معنى البيان والكشف عنه في رأي الجاحظ . ويفهم مما أورده أن البيان عنده هو الكشف عن المعنى بأسلوب جَزْل واضح مُفْهم لا لُبْس فيه .

٢- يورد الجاحظ رأيه في التفريق بين اللفظ والمعنى ، وهو إيثار اللفظ وتفضيله على المعنى ، فالمعاني متعددة كثيرة تكمن في الصدور وتمتلئ بها النفوس ، وإنما الحكم للفظ لأن المعنى موجود في نفسك خلاف اللفظ الدال على ذلك المعنى دلالة دقيقة فإنك تبحث عنه في حصيلتك العلمية والثقافية ومدى تذوقك للأدب شعره ونثره ودقة ملاحظتك للأشياء وطرق التعبير عنها بالألفاظ المنسجمة معها .

٣- ذكر الجاحظ في هذا النص خمسة أنواع من الدلالات على المعاني ، أي الأشياء التي يمكن بوسيلتها التعبير عن المعنى سواء كان كلاماً أو غيره . وهذه الدلالات هي :

أ- اللفظ : ويقصد به الكلام المنطوق .

ب- الإشارة : هي العلامة بالجوارح كالرأس واليد وغيرهما .

ت- العَقْد : هو الحِساب بأصابع اليَد .

ث- الخَطّ : يقصد به الكلام المكتوب .

ج- النِّصْبة : هي الحال والهيئة التي تدل على المعنى وتقوم مقام الدلالات المذكورة.

وقد شرح الجاحظ مفهوم النصبة في موضع آخر فقال " وأمّا النّصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمُشيرة بغير اليد . وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وجامد ونامٍ ، ومقيم وظاعِن ، وزائد وناقص . فالدلالة التي في المَوَات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق ، فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعَجْماءُ مُعْربة من جهة البُرْهان .. " .

ومن النصبة حال الانسان في غَضَبِه وسُروره وتعابير وجهه المعبِّرة عن أحاسيسه من كُرْه وحب للأشياء أو التعجب منها .

نص في الخَطَابة وشروط الخطيب

" أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابِطَ الجَأْش ساكن الجوارح قليل اللّحْظ ، متَخيّر اللفظ ، لا يكلّم سيد الأَمةِ بكلام الأَمةِ ، ولا الملوك بكلام السُّوقَة ويكون في قواه فَضْل التصرّف في كل طبقة ، ولا يُدقّق المعاني كُلّ التدقيق ولا يُنقّح الألفاظ كل التّنقيح ، ولا يُصفّيها كل التصفية ولا يُهذّبها غاية التهذيب ، ولا يفْعل ذلك حتّى يُصادف حكيماً ، أو فيلسوفاً عليماً ، ومَنْ قد تعَوَّدَ حَذْفَ فُضُول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الإعتراض والتّصفّح وعلى جهة الاستطراف والتّظرّف .... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحَمْل عليهم على أقدار منازلهم ، وأنْ تُواتَيه آلاته وتتصرّف معه أداته ، ويكون في التّهمة لنَفْسه مُتعدّلاً ، وفي حُسْن الظن بها مُقتَصِداً ، فإنّه إن تجاوز مقدار الحقّ في التُهمة لنَفسه ظَلَمها ، فأودَعها ذِلّة المظلومين ، وإنْ تَجَاوز الحقَّ في مقدار حُسْن الظن بها آمنها فأودعها تهاون الآمنين . ولكلّ ذلك مقدار من الشُّغْل ولكلّ شُغْل مقدار من الوَهْن ، ولكلّ وَهْن مقدار من الجَهْل .. " .

الألفاظ

آلة البلاغة : أسبابها وما يحتاج اليه المرء ليكون بليغاً .

رابط الجأْش : يقال : رجل رابِط الجأش : اذا كان صابراً على المُلِمّات قَويّ الإرادة في الشدائد .

الجوارح : جوارح الانسان أعضاؤه كاليدين والرجلين .

اللّحْظ : النَّظَر .

الأمة : الجارية المملوكة .

السُّوقة : العامة من الناس .

تنقيح الألفاظ : تهذيبها وحذف الفُضُول منها .

مشتركات الألفاظ : الألفاظ الدالة : على معانٍ متقاربة .

صناعة المنطق : علم المنطق ، ويقصد به المعايير العقلية لتصحيح الكلام .

الاستطراف والتظرّف : أن يكون الشيء طريفاً وظريفاً .

التُّهْمة : فوق الشّكّ .

الوَهْن : الضّعْف .

تحليل النص

ذكر لنا الجاحظ في هذا النص الشروط التي يجب ان تتوافر في الخطيب لكي يكون بليغاً ، وهي شروط يمكن تقسيمها الى صنفين :

الأول : شروط تتصل بهيئة الانسان وأعضائه حال إيراده الخُطْبة ، وهي :

أ- أن يكون رابط الجَأْش أي قويّ الإرادة .

ب- أن يكون ساكن الجوارح لا يُحرّك رأْسَه وَيَديه كثيراً .

الثاني : شروط تتصل بالكلام وبمن يوجه اليهم الكلام ، وهي :

أ- أن يختار الفاظاً واضحة صحيحة ليس فيها غموض أو تحريف .

ب- أنْ يكلّم الناس كُلاًّ بِحَسَب طبقته ، فلا يكلّم الخاصة بكلام العامة ، ولا يكلّم العامة بكلام الخاصّة ، وأن يُحمّل في كلامه كل قوم على قَدْرِ طاقتهم في فَهْم الأمُور .

ت- أن لا يتعود المبالغة في تدقيق المعاني وتهذيب الألفاظ وتنقيحها وحذف الفضول منها إلا إذا صادف جَمْعاً من العلماء .

ث- أن يكون معتدلاً في تهمته لنفسه وتمكنه من أداة البلاغة والفصاحة ، فلا يتجاوز المقدار في التهمة لنفسه لأنه لو فعل ذلك لظلمها ، ولا يُحْسن الظن بنفسه لأنه لو تجاوز المقدار في حُسْن الظن بها لَضَعُفَ ووهِن . والضّعْف يؤدي الى الجهْل.

نصوص من كتاب الحيوان

نص في تقسيم الحيوان وأقسام الموجودات :

" إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء : مخْتلف ومُتّفِق ومُضادٌّ ، وكُلّها في جملة القول جَمَاد ونَامٍ ... ثم إن النامي على قسمينِ : حيوان ونبات . والحيوان أربعة أقسام : شيء يمشي ، وشيء يطير ، وشيء يسبح ، وشيء ينساح . والشيء الذي يمشي : ناسٌ وبهائم وسباع وحَشَرات ...

ثم اعلم أن الجبل ليس أدلّ على الله من الحَصَاة ، ولا الفَلَك المشتمل على عالمنا هذا بأدلَّ على الله من بدن الانسان ، وأن صغير ذلك ودقيقَه كعظيمه وجَليله. ولم تفترق الأمور في حقائقها وإنما افترق المُفكّرون فيها .. "

الألفاظ

مختلف : الاختلاف بين شيئين ليس على جهة التّضاد ، كاختلاف الأنهار عن الأشجار واختلاف المسافات عن الأحجام ... الخ .

مُتّفق : الاتّفاق على سبيل المماثلة او المشابهة كاتفاق الناس في خَلْقهم واتفاق الحيوانات في أصنافها ، والنباتات في فصائلها .

مُضادٌّ : الاختلاف بين شيئين على جهة التضاد والمُقابلة ، كاختلاف الحار عن البارد والليل عن النهار ، والشر عن الخير .

النامي : الحي كالانسان والحيوان والنبات .

والجامد : الذي ليس فيه روح كالصخور والأنهار والمعادن .

ينساح : يزحف على بطنه (كالحيّة)

السِّباع : واحدها السَّبُعُ ، وهو كل حيوان ذي مخالب مُفْتَرس كالأسد والنّمر والفَهْد .

الحصاة : الحجر الصغير المتكون على ما هو عليه لا المنفصل عن غيره .

الفَلَك : مَدَار النجوم في السماءِ .

تحليل النص

١- إن الاشياء في العالم بما فيها الأجسام تنقسم من حيث الجمود والنمو على قسمين كبيرين : الجمادات وهي مسلوبة الحياة والنمو ، والناميات وهي الأشياء الحية التي تنمو . ومن خلال هذين التقسيمين الكبيرين تتشعب تقسيمات اخرى أصغر منها ، فالأشياء إما مختلفة وإما متّفِقة وإمّا مُضادّة ، والنامي إما حيوان وإما نبات ، والحيوان من حيث الحركة : يمشي أو يطير أو يسبح أو يزحف ، والذي يمشي : ناس وبهائم وسباع وحَشَرات .. الخ . ويظهر لنا الجاحظ من خلال هذا النص وهو مولع بالتقسيم والتحديد والتعريف وكأنه واحد من علماء المنطق في تحديده وتقسيمه للأشياء ، أو كأنه عالم من علماء الحيوان والنبات في تقسيمه لأنواعها المختلفة . فالنص يحكي لنا عقل الجاحظ وليس روحه ، فهو عالم منطقي يضع الكلمة في موضعها ويُعْنى بوضوح الدلالة واختصار الجمل وتسلسل الأفكار وتتابع التقسيمات من كبيرة الى صغيرة ، الى أصغر ، وهكذا ... فالنص يمثل لنا الجاحظ العالم وليس الجاحظ الأديب الذي يُعْنَى بِسَبْك الجملة ويلتقط لها الكلمات الموحية ويستفيض في الشرح والأمثلة ويتندر بتحوير العبارة ، ويُولع باستخدام المترادفات ، ويحوم حول المعنى الواحد حتى يشبعه وصفاً وتحليلاً .

٢- وفي قوله (ثم اعلم أن الجَبَل .. الخ) تأكيد للمعنى السابق في النظرة الى الأشياء نظرة منطقية واستخدام المتقابلات ، إذ عقد مقابلة بين شيئين : الكبير ويشبه الجبل في مقابل الصغير وتمثله الحصاة ، والبعيد ويمثله الفَلَك ، في مقابل القريب ويمثله جسْم الانسان ، ثم اختتم كلامه بهذه العبارة الفلسفية (ولم تفترق الأمُور

في حقائقها إنما افترق المفكرون فيها) فالحقيقة هي واحدة وثابتة ولكن الطرق الموصلة اليها تختلف بإختلاف الناس وعقولهم ومعتقداتهم .

نص في نوع من الحَيّات وكيف تصيد طعامها :

" إنّ في رمال بَلْعَنْبر حيّة تصيد العصافير وصِغار الطّيْر بأعجَبِ صيْد . زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحرّ وامتنعت الأرض على الحافي والمُنْتَعل ورمض الجُنْدُب . غمست هذه الحيّةُ ذَنَبها في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رُمْحٌ مركز ، أو عَود ثابت ، فيجيء الطّيْرُ الصغير أو الجرادة ، فإذا رأى عوداً قائماً وكرِهَ الوقوع على الرّمل لشدّة حرّهِ وقَعَ على رأس الحيّة على أنها عُودٌ . فإذا وَقَع على رأسِها قَبَضَت عليه ، فإن كان جرادة أو جُعَلاً أو بعض ما لا يُشبِعها مِثله ابتلعته وبقيت على إنتصابها ، وإن كان الواقع على رأسها طائراً يُشبِعها مِثله أكَلَته وانصرفت."

الألفاظ

بَلْعَنبر : بنو العَنْبر ، قبيلة عربية .

رَمَض : من الرّمْضاء ، وهي الرّمل الحارّ ، وبه سميت الصحراء رمضاء لشدّة حرّها .

الجُنْدُب : جَرَاد صغير الحَجم يقفز ولا يطير .

رُمْح مَرْكوز : أي مُثَبّت

الجُعَل : الخُنْفَسَاء

تحليل النص

١- النص عبارة عن قصة قصيرة ، وبغض النظر عن مدى كون الخبر صحيحاً أو غير صحيح فهو يمثل لنا أسلوباً معيناً للجاحظ ، ذهب فيه مذهب أصحاب القصص والأخبار في سرد الواقعة بجزئياتها المختلفة ، والانتقال من فكرة الى اخرى حتى يصل الى إثارة القارئ وانتظار النتيجة ، فيأتي بها بجمل وعبارات مناسبة . فالجاحظ في هذا النص – خلافاً للنص السابق – اديب قصصي بارع في تصوير الأحداث .

٢- ولكي يبدو غير متثبت من القصة التي ينقلها نراه يستعمل في بدايتها عبارة (زعموا) وهير عبارة تتضمن معنى الشك وعدم التثبت من الأمر . وبذلك لا ينسلخ الجاحظ من نفوذ العقل تماماً .

الرسالة العذراء المنسوبة الى أبي المُدَبّر

أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المُدَبِّر الكاتب ، ولد في بغداد سنة ١٩٥ هـ وعاصر من الخلفاء المأمون والمعتصم والمتوكل إذ أصبح من وجوه كُتّاب الدواوين في عهده . وبقي الى خلافة المعتضد وتولى له ديوان الضِّياع[٢٦] ببغداد ، وتوفي سنة ٢٧٩ هـ .

كتب ابن المُدبّر رسالة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سميت الرسالة العذراء لنفاستها وأنه لم يسبق الى مثلها . وقد لاحظنا – سابقاً – أن عبد الحميد الكاتب وضع رسالة الى الكُتّاب يشرح فيها المعايير البلاغية والبيانية والخلقية والسياسية التي ينبغي أن يتّصف بها الكاتب المجيد ، فالرسالة العذراء هي امتداد لرسالة عبد الحميد الا أن فيها إضافات كثيرة ولا سيما في آداب الخَطّ وتجويده .

وفيما يأتي بيان لأهم الموارد التي ذكرت في الرسالة :

١- ابتدأ ابن المدبّر رسالته بمقدمة ذكر فيها الأسباب التي دعته الى تأليف رسالته ويبدو من هذه المقدمة أنه وجهها الى أحد الأعيان من الوزراء أو الفضلاء في عصره . قال " فَتَق الله بالحكمة ذِهْنك ، وشرح بها صَدْرك ، فأنطَقَ بالحقّ لسانك، وشرّف بيانك . وصل إليّ كتابك العجيب الذي استفهمتني فيه بجوامع كَلِمك جوامع أسباب البلاغة ، واستكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة سألتني أن أقف بك على وَزْن عذوبة اللفظ وحلاوته ، وحدود فَخَامة المعنى وجزالته ، ورَشَاقة نَظْم الكتاب ومُشَاكلة سَرْده وحُسْن افتتاحه وَخَتْمه ، وانتهاء فصوله ، واعتدال أُصوله ، وسلامتها من الزَلل وبُعْدها من الخَطَل ، ومتى يكون الكاتب مستحقاً ، والبليغ مُسلّماً له معاني البلاغة ، في أشارته واستعارته ، والى أيّ أدواته هو

---

[٢٦] الضّيعة ، وجمعها : ضِياع : العِقار من دور وقصور وأراض .

أحْوَج ، وبأيّ آلاته هو أعملُ ... وأنا راسم لَك – أيّدَك الله – من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك ، ويُعبّر عن جملة سؤالك ، وإن طَوّلتُ في الكتاب وَعَرَضْتُ وأطْنَبْتُ في الوصف وأسْهَبْتُ ومُسْتقصٍ على نفسي في الجواب على قدْر استقصائك في السؤال ، وإن أخلّ به التياث الحال وسكون الحَرَكة وفتور النشاط ، وانتشار الرويّة وتَقَسّم الفِكْر ، واشتراك القَلْب والله المُسْتعان " .

٢- إن العلم يؤخذ اكتساباً بالتردد على مجالس العلماء ومدارسة كتبهم ، وإن البلاغة والفصاحة تستوجبان تصفح كتب المتقدمين والمتأخرين والاستعانة بالأشعار والأخبار والسِّير والتأريخ . قال " واعْلم أنّ الاكتساب بالتعلم والتكلّف وطول الاختلاف الى العلماء ومُدارسة كُتُب الحكماء ، فإن أردتَ خوضَ بحار البلاغة وَطَلَبْتَ أدوات الفصاحة ، فتصفّح من رسائل المتقدّمين ما تعتمد عليه ومن رسائل المتأخّرين ما تَرْجع إليه في تَلْقيح ذِهْنك واستنجاح بلاغتك ، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار والسِّيَر والأسماء ما يتّسع به مَنطِقك ، وَيَعْذُبُ به لسانك ويطول به قَلَمُك .. " .

٣- ومن أدوات البلاغة أن يَنْظُر المَرْءُ في كُتب المَقَامات والخُطَب ، وفي علم النحو والصرف واللغة وأن يطَّلِع على كُتُب السجلاّت والأمانات وأساليبها المختلفة ويُضمّن كتابه أمثالاً من القرآن وأبياتاً من الشعر ونوادر من الأمثال العربية مُوافِقَةً للمَقَام ، وأنْ يَتَجنّب الاستشهاد بالأمثال والأشعار اذا وجّه كتابه الى خليفة أو مَلكٍ " فان اجتلاب الشّعْر في كُتُب الخلفاء والجِلّة الرؤساء عَيْبٌ واستهجان للكُتُب ، إلاّ أن يكون الكاتبُ هو القارِض للشعر والصانع له ، فإن ذلك مما يَزِيد في أُبّهته ويدلُّ على براعته .. "

٤- وينبغي للكاتب المجيد أن يجمع الى البلاغة في اللسان الصفات الجميلة ، والشمائل الجليلة ، وأنْ يتصف بِخِفّة الروح وسرعة البديهة . قال ابن المدبّر " بعد أن يكون الكاتب رجيح القَريحة ، حُلْوَ الشمائل عَذْبَ الألفاظ ، دقيق الفَهْم حَسَنَ القامة

بعيداً عن الفَدَامة[٢٧] خفيفَ الرّوح حاذِقَ الحِسّ مُحنَّكاً بالتّجربة ، عالماً بحلال الكتاب والسُّنَّة وحِرامها ، وبالملوك وسِيَرها وأيامها ، وبالدّهُور في تقلّبها وتداولها . مع براعة الأدب وتأليف الأوصاف ومُشاكَلة الاستعارة ، وحُسْن الإشارة وشَرْح المعنى بمِثلِه من القول حتى تَنْصَبَّ صُوَراً منطقية تُعْرب عن أنفسها ، وتَدُلّ على أعيانها ... " .

٥- ولمن يوجه إليه الكلام أهمية خاصة ، وعلى الكاتب أن ينظر لمَنْ يُخاطبه في كتابه وأن يجعل كلامه على قَدْر فضْل المُخاطَب ورتبته وطبقته ، وقد عبّر ابن المدبّر عن ذلك بـ (طبقات الكلام) أي رُتَب المخاطَبين وقسّمها على ثماني طبقات: الخلفاء والوزراء وكُتّابهم وأمراء الثُّغُور وقُوّاد الجيوش والقُضَاة ، والملوك ويعني بهم السلاطين الذين تولوا سلطاتهم من قبل الخلفاء ، ووزراء الملوك وكُتّابهم والعلماء أهل القَدْر والجَلالَة والظُّرْف والعِلْم والأدب وهم الفضلاء من عامة الناس . قال ابن المدبّر "وخاطِب كُلاً على أُبّهَته وجلالته وعُلُوّه وارتفاعه وتَفَطُّنه وانتباهه واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام ، فأربعة منها للطَبَقة العُلْويّة وأربعةٌ دُونَها ولِكُلّ طبقة منها دَرَجة ولِكُلّ قِسْمة حَظٌّ لا يتّسع للكاتب البليغ أن يَقْصُر بأهلها عنها ويَقْلب معناها الى غيرها ، فالطبقة العُليا : الخلافة التي أعلى الله شأنها عن مساواتها بأحدٍ من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسّل . والطبقة الثانية : الوُزراء والكُتّاب الذين يُخاطبون الخلفاء بعُقُولهم وألسِنَتهم ويَرْتَقُون الفُتوق[٢٨] بآرائهم ويَتَجمّلُون بآدابهم . الثالثة : أُمَراء ثُغُورهم وقُوّاد جيُوشِهم ، يُخاطِب كُلَّ إمرئٍ منهم على قَدْره وبما حمل من أعباء أُمُورهم وجلائل أعمالهم . الطبقة الرابعة : القضاة ، فإنّهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحِلْية العقلاء فمعهم أُبّهَة السَلْطَنة وَهَيبة الأُمراء .

---

(٢٧) الفَدَامة والفُدُومَة : بُعْد الفَهْم ، ورَجلٌ فَدِمٌ : بعيد الفَهْم .

(٢٨) رَتْقَ الفَتْقَ : سَدّه . والتعبير على سبيل المجاز بمعنى حلّ الإشكال بالرأي الصائب .

أما الطبقات الأربع الأُخرى فالملوك إذ أوجَبت نِعَمُهم تَعْظيمهم في الكُتُب فأفضالهم تَفْضِيلهم فيها . والثانية : وزراؤهم وكُتّابهم وأتباعهم الذين بهم تُقْرع أبوابهم وبعنايتهم تُسْتماح أموالهم . والثالثة : هم العلماء الذين يجب توقيرهم في الكُتُب لشَرَف العِلْم وعُلُوّ دَرَجة أهله . الرابعة : لأهْل القَدْر والجَلالة والظَّرْف والحَلاوة والعِلْم والأدب ، فإنّهُم يُضْطَرّونك بحِدّة أذهانهم ، وشِدّة تمييزهم وانتقادهم الى الاستقصاء على نَفْسِك في مُكَاتبتهم .. " . ولم يذكر ابن المدبّر التجّار والعامّة من الناس من تقسيمه لطبقات الكلام وعلّلَ ذلك قائلاً " واستغنينا عن الترتيب للتجّار والسُّوقة والعَوَامّ رُتْبة لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه الآلات واشتغالهم بمُهمّاتهم عن هذه الأدوات" .

ويجب على الكاتب أن يخاطب كلَّ طَبَقةٍ من الطبقات المذكورة بأسلوب مناسب لمقامها . قال " ولكل طبقة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهب يجب عليك أنْ تراعيها في مراسلتك إليهم في كُتُبك ، وتَزِن كلامك في مخاطبتهم بمِيزانه ، وتُعْطيَه قِسْمه ، وتُوفِيه نَصِيبه فإنّك متى أضَعْتَ ذلك لم آمنْ بك أنْ تَعْدل بهم غير طريقهم وتُجْري شُعَاعَ بلاغتك في غير مَجْراه وتَنْظِم جَوْهر كلامك في غَيْر سِلْكِه فلا يُفيْد المعنى الجَزْل ما لم تُلْبسه لَفْظَاً جَزْلاً لائقاً بِمَنْ كاتبته، ومُشَابهاً لمن راسَلْته .. " .

٦- وردت جمل وعبارات متعارف عليها تكتب في صدور الكُتُب والرسائل . وهي عبارات جرت بين الأُدباء مَجْرى التقليد والاستئناس ، كقولهم (أبقاكَ الله طويلاً) و (عَمّرك مَلِيّاً) في مخاطبة الملوك والأمراء و (أكرمكَ الله وأبقَاكَ) وهي احسنُ منزلة في كتب الظرفاء والأدباء من عبارة (جُعِلْتُ فِداك) . وأمّا قولهم (أبقاكَ الله وأمْتَع بك) فلم يُجيزوا أن يكتُبوا بمثله الا الى الحُرْمة والأهْل التابع والمنقطع اليك . وأمّا في كُتُب الأُخْوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه . وذكر ابن المدبّر العبارات المستعملة في صدور الكُتُب والرسائل عند السّلَف ، ومنها قولهم : من فلان بن فلان الى فلان ، بتقديم اسم المُرْسِل على اسم المُرْسَل إليه كما وقع في

كتب النبي (ص) الى بعض الملوك . وجرى على هذا التقليد كلٌّ من الصحابة والتابعين والخلفاء والكُتّاب .

٧- والأفضل للكاتب أنْ يختتم رسائله بعبارات متناسبة وفَحْوى الرسالة ، وذكر ابن المدبّر أمثلة لذلك ، منها قولهم في موضع ذِكْر الشكوى : (والله المُسْتعان) (وحسبنا الله ونعم الوكيل) وفي موضع ذكْر البَلْوى (نسْألُ الله دَفْعَ المحذور) (و نسْألُ الله صَرْفَ السوء) وفي موضع ذِكْر المصيبة : (إنّا لله وإنّا إليه راجعون) وفي موضع ذِكْر النِّعَم : (والحمدُ لله خالصاً) (والشُّكْرُ لله واجِباً) .

٨- لا يجوز في الرسائل ما جاء في القرآن من القضايا البلاغية كالإيصال والحَذْف ومخاطبة الخاص بالعام ، والعام بالخاص . وعلل ذلك ابن المدبّر قائلاً " لأن الله – سبحانه وتعالى – إنما خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء فَهِموا عنه – جلَّ ثناؤهُ – أمْرهُ ونَهْيهُ ومُراده . والرسائل إنّما يُخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا عِلم لهم بلسان العرب " ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر كالإغراب في اللفظ وسوء النّظْم والتقديم والتأخيْر والإضمار في موضع الإظهار .

٩- العناية بأدوات الكتابة كالقلم والحِبْر والقِرْطاس . قال ابن المدبّر (واعْلَمْ أن أول ما ينبغي لك أن تُصْلح آلَتك التي لا بد لك منها وأدواتك التي لا تَتمُّ صناعتك إلاّ بها وهي دَواتُك[٢٩] فابدأ بِعِمارتها وإصلاحها وتَخَيَّر لها لِيَقةً[٣٠] نَقِيّة من الشَّعَر والوَذَح[٣١] لئلاّ يَخرُج على حَرْف قَلَمُك ما يُفْسِدُ كتابك ويَشْغلك بتنقيته ..

واجعل لِقَلَمِك برّايةً حادّة فإن تَعَثّر يَدِ الكاتب وَقْتَ قَطْع القِرطاس ناقصٌ لمروءته ومُخِلٌ بِظَرْفه ، وإن قَدَرت أنْ لا تقطع القُرطاسَ إذا فرِغْتَ من كتابك الا بِخُرْطُم قَلَمك فافعلْ فإن ذلك أكمل لمروءتك وأبدع لِظَرْفك وقَطْعك. واستعمل لبَرْي القَلَم

---

[٢٩] الدَّواة : التي يكتب منها ، وهو الحبْر ونحوه

[٣٠] اللّيقَة : مُركّبات الحبْر وما تصْلح به الدواة . وتختلف باختلاف أنواعه . ومنها قولهم لاقت الدواة ، أي لَصِقَت ، ولاقَها فهي مَلِيقة ، والاسم منه : اللِّيقة .

[٣١] الوَذَح : الصُوف .

سِكّيناً طَواويسيّاً مُذْلَق[٣٢] الحَدّ وَمِيض الطّرْف ، فيكون ذلك عوناً على بَرْي أقلامك، فإنّ مَحَل القلم من الكاتب محلّ الرُّمْح من الفارس)) .

١٠- العناية بالخط وتجويده ، وقد نقل ابن المدبر لأحد الكتاب الخطّاطين قوله في حُسْن الخط فقد قال هذا الكاتب " أُعلّمُكَ الخَطّ في كلمة واحدة : لا تَكْتُبنَّ حَرْفَاً حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف المبدوء به ، وتجعل في نفسك أنّك لا تَكْتُب غيره حتى لا تَعْجَل عنه الى غَيْرِه . وإيّاك والنَّقْط والشّكْل في كتابك الا أن تمر بالحَرْف المُعْضِل الذي تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه ، فَلئِنْ يَشْكُلَ عليّ الحَرْفُ أحبُّ إليّ من أن يُعاب بالنّقْط والإعجَام .. " .

١١- ومن الأمور التي يجب أن لا يغفل عنها الكاتب الصلاة على النبي (ص) ، ويستحب أن يذكر اسمه الشريف والصلاة عليه في أول الدعاء الوارد في الرسالة، وفي وسطه وفي آخره .

وأن لا يغفل الكاتب عن ذكر التاريخ " فإنّه يَدلّ على تحقيق الأخبار وقُربها وبُعْدها " وأن ينظر " الى ما مضى من الشهر وما بقي فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قُلْتَ : لكذا ليلة مَضَتْ من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقلّ من النصف قُلْتَ: لكذا ليلة – أيضاً – بقيت .. " .

مثال ذلك :

١٠ شعبان = لعَشْر ليالٍ مَضَتْ (أو خَلَت) من شهر شَعْبان .

١٤ شعبان = لأربعَ عَشْرةَ ليلة مضت (أو خلت) من شهر شَعْبَان .

١٥ شعبان = في مُنتصف أو (أواسط) شَعْبان .

١٦ شعبان = لأربع عشرَةَ ليلة بَقِيَتْ من شهر شَعْبان .

٢٠ شعبان = لعَشْر ليالٍ بقيت من شهر شَعْبان .

٢٨ ، ٢٩ شعبان = في أواخر شَعْبان .

---

[٣٢] مُذْلَق : حادّ .

وإذا خرج الكاتب من رسالته أو كتابه في أول الشهر قال : في غُرَّة شهر كذا .

١٢- قال ابن المدبر في فضيلة الخَطّ " للخط صورة معروفة وحِلْية موصوفة وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف ، لأنه لا ينوب عنها في الإيضاح عند المَشْهَد ، ويفضّلها في المَغِيْب . وكفى بفضيلة العلم والخَطّ قول الله – عزّ وجلّ – " الّذي علّمَ بالقَلَم علَّمَ الانسانَ مالم يَعْلَمْ " ، وأقسم به كما أقسم بغيره ، ثم أقسم بما يكتبهُ القلم إفصاحاً عن حاله وإعظاماً لشأنه وتنبيهاً لِذكْرِه ، فقال (وما يَسْطُرون) . ومن فضيلة الخَطّ أنّه لسان اليد ورسول الضّمير ودليلُ الإرادة والنّاطق عن الخواطر ومُغيّر العُقول ، وَوحي الفِكْر وسلاح المَعْرفة ،ومحادثة الأخلاّء على التنائي ، وأُنْس الاخوان عند الفُرْقَة ، ومُسْتودع الأسرار وديوان الأُمور ، وتُرْجَمان القُلُوب والمعبِّر عن النُفُوس والمُخْبر عن الخواطر ، ومُورِث الآخر مَكَارم الأوَل ، والناقل إليه مآثر الماضي ، والمُخَلّد له حِكْمته وعِلْمه .. ".

أهم المصادر والمراجع

١- أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – المطبعة الرحمانية بمصر . د.ت.

٢- أدب الكُتّاب ، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي – عني به محمد بهجة الأثري – نشر دار الكتب العلمية في بيروت .د.ت (طبعة مصورة عن الطبعة السلفية في القاهرة) .

٣- الاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب ، لأبن السيد البطليوسي – بعناية عبد الله البستاني – بيروت ١٩٠١ م .

٤- الألفاظ الكتابية ، لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، اعتنى بضبطه وتصحيحه الأب لويس شيخو اليسوعي – مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت ١٩١١ م .

٥- البخلاء ، للجاحظ – تحقيق عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

٦- البيان والتبيين ، للجاحظ – تحقيق عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

٧- تأريخ القرآن ، لأبي عبد الله الزنجاني – مؤسسة الأعلمي – بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩ م .

٨- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، لأنيس المقدسي – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٩ م .

٩- الحيوان ، للجاحظ – تحقيق عبد السلام محمد هارون – مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٤٥ هـ .

١٠- رسائل البلغاء – جمع محمد كردعلي ، وفيها : الأدب الصغير ، والأدب الكبير لابن المقفّع ، ورسالة عبد الحميد الكاتب الى الكُتّاب ، والرسالة العذراء

المنسوبة الى ابن المدبر – دار الكتب العربية الكبرى – القاهرة ١٣٣١هـ - ١٩١٣ م .

١١- شرح أدب الكاتب ، لأبي منصور الجواليقي – مكتبة القدسي – القاهرة ١٣٥٠ هـ .

١٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، لأبي العباس القلقشندي – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

١٣- فقه اللغة وسر العربية ، لأبي منصور الثعالبي – نشر دار الكتب العلمية عن الطبعة اليسوعية القديمة في بيروت .د.ت.

١٤- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، لشوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة ١٩٦٠ .

١٥- الفهرست ، لابن النديم – تحقيق رضا تجدد – طهران ١٩٧١ م .

١٦- كتاب الكُتّاب ، لابن درستويه – بيروت ١٣٢١ هـ .

١٧- كليلة ودمنة ، لابن المقفّع ، بعناية محمد حسين نائل المرصفي – مطبعة مصطفى محمد – القاهرة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م .

١٨- معجم الأدباء (إرشاد الأريب الى معرفة الأديب) ، لياقوت الحموي – تحقيق أحمد رفاعي وغيره – القاهرة ١٩٣٦ م .

١٩- المقدمة ، لابن خلدون – مطبعة التقدم – القاهرة ١٣٢٩ هـ .

٢٠- مكاتيب الرسول ، لعلي بن حسينعلي الأحمدي – دار المهاجر – بيروت د.ت.

٢١- الوزراء والكُتّاب ، لابن عبدوس الجهشياري – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.